قضية للحوار

خالد محيى الدين

الدين والاشتراكية

(الطبعة الثانية)



دار العالم الثالث



الدين والاشتراكية

(الطبعة الثانية)

خالد محيي الدين

الديـــن والاشتراكيـــة

الطبعة الثانية ٢٠٠٤

در العالم الثالث

٣٢ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس ٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguindimohamed@hotmail.com

خالد محيي الدين

الدين والاشتراكية

(طبعة ثانية)



دار العالم الثالث

مقدمة الناشر
للطبعـــة الثانيـــة

* * *

هذا الكتاب صدر في الســـبعينيات وطبعنـــا منـــه عشـــر آلاف نســـخة نفـــدت بالكـــامل. وأحسســـنا بالحاجة الملحــــة لنشـــره مـــن جديـــد نظـــراً لأهميـــة الموضوع وأهمية كاتبــــه. وقـــد اســـتأذنت في ذلـــك السيد/ خالد محيى الدين. فرحب بذلـــــك.

وخالد محيى الدين هو زعيـــم اليســـار في مصـــر، والقضية التي أثارها في هـــذا الكتيـــب قضيـــة هامـــة ومحورية، فهو يؤمن بالاشتراكية ويدعـــو إليـــها داخـــل أمة تســـودها العقيـــدة الإســـلامية. ويـــرد بـــالدلائل والبراهين على من يختلقون التنـــاقض بـــين الاشـــتراكية

والإسلام، ويبين أن كلا من الاشتراكية والإسلام يدعوان إلى العدالة الاجتماعية والديموقراطية.

وخالد محيي الدين من مؤسسي تنظيم الضباط الأحرار، الذين خططوا وقاموا بثورة يوليو التي أيدها الشعب تأييداً إجماعيا. وكان خالد محيى الدين سواء قبل انتصار الثورة أو بعدها ينادي بالديمقراطية إلى جانب العدالة الاجتماعية. وكان مجلس قيادة الثورة يجمع بين اتجاهات مختلفة يوحدهم الاتفاق على إنهاء الوضع السابق.

ونجح قادة يوليو، وكان خالد محيى الدين واحداً منهم، ولكن تمسكه بالديمقراطية جعلته يختلف مع زملائه عندما حدثت تجاوزات تمس الديمقراطية، مما دفعه ذلك إلى السفر للخارج سنتين، عاد بعدها، وعهد إليه جمال عبد الناصر بمسئولية جريدة المساء ثم جريدة أخبار اليوم. وظل شريكاً لعبد الناصر طوال المسيرة الوطنية، عند تأميم قناة السويس والتصدي للعدوان الثلاثي

وإجراءات التأميم وغيرها من الإجراءات الوطنية والاجتماعية التي وقف معها وأيدها بقوة لأنها تعبر عن توجهه الاشتراكي وانتمائه الوطني الأصيل.

* * *



نحن لا نزعم ان الإسلام دين الاشتراكية، ولا أن التطابق تام بين فكر العدل الاجتماعي في الإسلام وبين الاشتراكية. لأننا لو أبحنا لأنفسنا ذلك لكان مباحاً أيضاً لخصومنا الفكريين من أنصار الرأسمالية ودعاة الإقطاع وكهنة التفاوت الطبقي والمظالم الاجتماعية، أن يزعموا هم الآخرين بأن الإسلام دين الرأسمالية، وأن التطابق تام بينه وبين المذهب الفردي في الاقتصاد والاجتماع ... ولو حدث ذلك أو شيء منه، لوجدنا كل فريق يسعى ليقتنص نصا أو نصوصا من آيات القرآن الكريم. وحديثا أو أحاديث من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يذهب ليلوي، بالتفسير والتأويل عنق هذه النصوص ليعطي التأييد والمساندة لما يريد أن تذيع في الناس من فكر وآراء .. وهو الأمر الذي يعود بنا إلى صور من التاريخ لا نرضاها، يوم أن اختلف المسلمون لأسباب سياسية واجتماعية وقبلية، ثم وقع نفر منهم في خطأ إضفاء الصبغة الدينية على هذه

الخلافات، فحولوا الخلاف السياسي والاجتماعي بين المؤمنين بالدين الواحد إلى خلاف ديني استخدموا فيه سلاح «الكفر والتكفير» ومصطلحاتها .. الأمر الذي نبه به الإمام علي بن أبي طالب إلى مخاطره عندما قال كلمته الشهيرة: ان القرآن حمال أوجه: وأن شعارات هؤلاء الناس هي: كلمات حق يراد بها باطل!!

ثم .. ماذا يكون الموقف إذا نحن «صنفنا» الدين في إطار مذهب اجتماعي ونظام اقتصادي بعينه، ثم جرى نهر الحياة الذي لا يتوقف أبدا فتجاوز المرحلة التاريخية التي كان فيها هذا المذهب وذلك النظام يمثلان الاستجابة المثلى لمصالح جماهير الناس: ألا نكون بذلك قد حكمنا على الدين «باستنفاد أغراضه» والانضمام إلى أنماط من الكفر وألوان من الدعوات تجاوزتها الحياة في طريقها المتطور أبداً ؟! .. وهو الأمر الذي يتنافى مع ما نؤمن به من صلاحية أصول الدين لكل زمان ومكان؟ ..

اننا نربأ بأنفسنا عن هذا الموقف الفكري، وندعو كل فرقاء العمل السياسي والاجتماعي في وطننا إلى الكف عن «لعبة» تصنيف الدين في خانة نظام اقتصادي بعينه أو مذهب اجتماعي بالتحديد ..

***

لكن .. تبقى قضية «العلاقة» بين الإسلام، كدين، وبين المذاهب الاجتماعية التي تتصارع اليوم على أرض واقعنا الوطني، وهي المذاهب التي تعكس المصالح الاجتماعية المختلفة والمتناقضة لمختلف الطبقات ... ما موقف الإسلام من هذه المذاهب ؟ وإلى أي المصالح الاجتماعية ينحاز ؟ ولأي الطبقات يمنح التأييد والمساندة والتزكية في هذا الصراع ؟!

اننا نؤمن بوجود «علاقة» بين أصول الفكر الإسلامي وبين الحلول التي تقدمها المذاهب الاجتماعية المختلفة لمشكلات الإنسان، لأن الإسلام دين غير مقطوع الصلة بأمور الحياة الدنيا ومشكلاتها .. لكننا نؤمن أيضاً أن هذه العلاقة لا تتمثل في حلول جاهزة وأنظمة مفصلة على الإنسان المعاصر أن يستخرجها من بطون الكتب ليضعها في حيز التطبيق. وإنما هي تتمثل أساساً، صورة دعوته الخالدة إلى العدل الاجتماعي وسيادة الإنصاف بين الناس، والنظر إلى مجموع الأمة ككل واحد متكافل، وتغليب مصلحة المجموع والأكثرية على مطامع القلة المتعارضة مع مطامح المجموع.

فالعدل الاجتماعي الذي دعا إليه الإسلام أشبه ما يكون «بالمثل الأعلى» الذي سيظل الإنسان يسعى

نحوه، مؤملا تحقيقه في واقع الحياة، وكلما اقترب من صورته «المثلى» وحقق قدراً أكبر من العدل في واقعه، أدرك أن الطريق ما زال ممتداً، بل وطويلا وأن المزيد من العدل يتطلب المزيد من السعي في اتجاه هذا المثل الأعلى «الذي دعا ويدعو إليه الإسلام .. فمطالب الإنسان وطموحاته لا تعرف الحدود، وآماله في المزيد من العدل على هذا الكوكب ليس لها حدود.

وبهذا الموقف الداعي بجوهر الفكر الإسلامي عن العدل الاجتماعي وبجوهر التطور المستمر للنظم والأفكار الاقتصادية والاجتماعية، ندرك أن كل الدعوات والمذاهب الاجتماعية تستهدف تحقيق أكبر قدر من العدل الاجتماعي لجماهير الناس هي الدعوات والمذاهب التي تسير ويسير أصحابها على الطريق الذي دعا إليه الإسلام ويبشر به الرسول عليه الصلاة والسلام فالواقع الاقتصادي يتوطر فيختلف، وتبعا لذلك تتطور المذاهب الاجتماعية وتتغير الدعوات والأسماء، ولكن تبقى الحقيقة الأكيدة: أن الذين يبتغون بنضالهم تحقيق أكبر قدر من العدل الاجتماعي لأوسع جماهير الأمة هي الساعون إلى الاقتراب أكثر فأكثر من «المثل الأعلى» للعدل الاجتماعي الذي يبشر به

الإسلام. وبعبارة فقهاء الإسلام: فأينمـــا توجـــد مصلحـــة الأمة فثم شـــرع الله.

هذا عن الأصول الجوهريـــة الـــتي تتمثـــل القـــاعدة العامة والقانون الكلي لموقف الإسلام كديـــن، مـــن قضيـــة العدل الاجتماعي في هذه الحياة .. وهـــي الأصـــول الـــتي نلتقي بها في القرآن الكريم والسنة النبويـــة الشـــريفة.

● فالأرض جميعها بكل ما فيها وما عليـــها مـــن ثـــروات، قد خلقها الله لكل بني الإنسان لا لقلـــة مرتزقـــة مســـتغلة ومستبدة (والأرض جعلها للأنـــام).

● وهذه الثروة فيـــض مـــن الخـــالق يعـــالج الإنســـان، كجنس، أمر تنميتها وتسخيرها لرفاهيتـــه وهـــو في ذلـــك وكيل ومستخلف لا مالك مستبعد مســـتأثر (وأنفقـــوا ممـــا جعلكم مستخلفين فيـــه).

● وتكافل الأمة أمر مقرر، وتضامنـــــها وجماعيتـــها ينبـــه إليها القرآن الكريم عندمـــا يضيـــف المـــال والأمـــوال في أغلب المواطن والآيات إلى ضمير «الجمـــع»وكمـــا يقـــول الإمام محمد عبده في تفسير قـــول الله ســـبحانه (يـــا أيـــها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكـــم بينكـــم بالبـــاطل ..): «أن الله أضاف الأموال إلى الجميـــع .. للتنبيـــه علـــى تكـــافل

الأمة في حقوقها ومصالحها، كأنه يقول «ان مال كل واحد منكم هو مال أمتكم» .. فصاحب الحق الأصيل في الثروة، بنظر الإسلام، هو الله وحق الله هو حق الجماعة والمجتمع كما قرر علماء الإسلام.

● وإرادة الله، التي علينا أن نسعى لتحقيقها، كي نكون أهلا لخلافته في الأرض، إرادة الله أن يكون العاملون والفقراء والمستضعفون في الأرض هم الأئمة والقادة، وهم الوارثون لما في هذه الأرض من خيرات (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

● ويكمل هذه الأصول القرآنية ـ التي أشرنا لطرف منها ـ التطبيق والتشريع الذي نهض به الرسول عليه الصلاة والسلام .. من «المؤاخاة» بين المسلمين .. وجعل الأرض لمن يحييها ويزرعها .. ونهيه عن الاحتكار واستغلال حاجات الناس .. وتقريره جماعية الملكية والانتفاع لمصادر الثورة الأساسية في مجتمع المسلمين.

أما التطبيقات الأخرى التي شهدها تاريخ المسلمين، فلقد تنوعت تبعاً لتطور واقع الحياة، ووفقا

لاقتراب أصحابها أو ابتعادهم عن متطلبات العدل الاجتماعي الذي دعا إليه الإسلام .. ومثلها في ذلك الاجتهادات والتشريعات الفقهية التي كونت تراثنا في هذا الميدان .. فهي آثار رجال اجتهدوا لعصرهم في ضوء فهمهم وتفسيرهم للقواعد الكلية التي حددها الإسلام في هذا الباب ... وبالمثل فإن لعصرنا مقتضياته التي تستنهض رجال كي يجتهدوا.

ولحسن حظنا .. ولسوء حظ الآخرين، أن الأغلب الأعم من فقهاء الإسلام ومفكريه، قد كانوا أوفياءوأمناء للروح الجماعية التكافلية التي مثلت حجر الزاوية في النظرية الاجتماعية للإسلام، فانحازوا اجتماعياً، مع الإسلام، إلى معسكر الأكثرية العاملة والمنتجة في المجتمعات التي عاشوا فيها.

فمن عمر بن الخطاب الذي أعلن: لئن عشت إلى العام المقبل لأخذت فضول (زيادات) ــ أموال الأغنياء فرددها على الفقراء، وجعلت الناس في العطاء سواء ... إلى علي بن أبي طالب الذي قطع بأنه: ما جاع فقير إلا بما متع به غني وأن الفقر في الوطن غربة، بينما الغني في الغربة وطن ! .. إلى عمر بن عبد العزيز

الذي شبه ثروة المجتمع بالنهر الأعظم العـــام الــذي جعـــل الإسلام حق الناس فيه سواء «شرهم فيـــــه ســـواء ! .. إلى الإمام الغزالي الذي يعلمنا ان مذهـــب الصوفيـــة في المـــال والثروة أنها كالماء في النـــهر، علـــى الإنســـان أن يشـــرب منـــها بقـــدر حاجتـــه، دون أن يحوزهـــا في «القـــرب أو الروايا» .. إلى جمال الدين الأفغـــاني الـــذي بشـــر بحتميـــة سيادة الاشتراكية في جميع أنحـــاء العـــالم، عندمـــا يســـود العلم الصحيـــح ويـــدرك الإنســـان وحـــدة أصلـــه، وأن العمل النافع هو أساس التفوق في الحيـــاة ..

نعم تلك هي الزاويـــة الـــتي نظـــر منـــها الإســـلام كدين، لمسألة الاجتماعية .. إلى المجمـــوع كـــان انحيـــازه، للأكثرية أستهدف إيصال ثمـــرات العـــدل الاجتمـــاعي في هذه الحياة .. بل لقد كـــانت تلـــك هـــي إرادة الله الـــتي جاء لتحقيقها كل الرسل على امتداد تـــاريخ الإنســـان.

ألم يرفض أغنياء مكة والطائف دعـــوة محمـــد، عليـــه السلام، لمضمونها الاجتمـــاعي الثـــوري، ولـــنزول كتابهـــا الكريم على رســـول فقـــير أتبعـــه جمـــهور مـــن الفقـــراء والرقيق والمستضعفين فقالو (لولا نزل هـــذا القـــرآن علـــى رجل من القريتين عظيم) كما قال أســـلافهم لنـــوح عليـــه

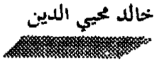
السلام (أنؤمن لك وأتباعك الارذلون ؟) (ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) !

فمنذ أن فرض الاستغلال والمستغلون على جماهير العاملين خوض معارك الصراع الاجتماعي كان انحياز أصحاب الأفكار النبيلة والدعوات الأصلاحية والثورية ـ وفي مقدمتهم الرسل والأنبياء بدعواتهم الإلهية ـ إلى صفوف الأكثرية العاملة. وهم بذلك إنما كانوا يسعون إلى تحقيق إرادة الله في أن تصبح القيادة ويصبح الميراث في هذه الأرض للمستضعفين فيها.

- وعن موقف الإسلام هذا ...
- وعن علاقة فكره الاجتماعي بالاشتراكية التي تمثل صيغة التغيير الاجتماعي ونظريته في مجتمعنا الراهن ..

نترك القارئ مع صفحات هذا الكتاب.

خالد محيي الدين



الدين والاشتراكية*

منذ أمد طويل وثمة خاطر يلح عليّ إلحاحاً شديداً بأن أكتب هذا الكتاب .. ويتجدد هذا الإلحاح كلما قرأت أو سمعت بعض الدعاوى والهجمات التي تشن ضد الاشتراكية تحت ستار الدين سواء أكانت بحسن نية أو بغيرها .. ذلك انني اعتقد اعتقاداً جازما بأن المؤمن الحقيقي بتعاليم الإسلام في جوهرها وروحها لابد لإيمانه هذا أن يدفعه إلى الوقوف بجانب الجماهير الكادحة في نضالها من أجل إلغاء الاستغلال في أرض الوطن وعلى النطاق العالمي كله.

كما أن الاشتراكية هي الصياغة المعاصرة التي تمكن الإنسان من النضال لتجميع الجماهير من أجل القضاء على استغلال الإنسان للإنسان ..

والحقيقة انني أعتقد أن كثيرين غيري قد راودهم ولا تزال تراودهم هذه الفكرة .. ولكن كثيرين من المؤمنين قد أثرت فيهم الدعاوى الخاطئة حول الاشتراكية فنفرهم منها

---

* نشرت بمجلة «الكاتب» عددها مارس ١٩٦٨

دون دراسة موضوعية .. وان كثيرين من الاشتراكيين قد أثرت فيهم نفس الدعاوى فعزلتهم عن دراسة التراث الإسلامي وفهمه فهماً صحيحاً وعلمياً.

ولهذا فان ثمة فجوة قائمة تمكن القوى الرجعية من أن تعزل عن مجرى النضال الإنساني من أجل الاشتراكية والديموقراطية والسلام، جماهير كثيرة وعناصر مخلصة تأثرت بهذه الدعاوى فوقفت بعيداً أو اتخذت موقفاً سلبياً من معركة البناء الاشتراكي في وطننا ومعركة النضال الاشتراكي في العالم كله.

والحقيقة انني شخصياً قد مررت بتجربة خاصة تدفعني إلى الكتاب تعبيراً عنها .. فأنا قد عانيت شخصياً من وطأة هذا التناقض المفتعل ..

ففي بدء دراستي للفكر الاشتراكي وخاصة للجانب الفلسفي المادي من كتابات بعض منظري الاشتراكية أحسست أن ثمة نقاطا محددة يبعدني إيماني عن الموافقة عليها ..

وظللت أمدا تحت وطأة هذا التناقض . فأنا أؤمن إيماناً جازماً بالدين كمعتقد وكضرورة لحياتنا . وأومن أيضاً بأن الاشتراكية تقدم للإنسان منهجا علمياً يمكنه من العمل المثمر ضد الظلم ولتمكين الإنسانية من بناء مستقبل تسوده الرفاهية والرخاء.

وهكذا بدأت محاولتي لفهم أكثر عمقاً لتعاليم الدين وفهم أكثر عمقاً للفكر الاشتراكي فإذا بي أجد انني أسير في طريق واحد وليس في طريقين.

فالدين والقيم الدينية ضرورة لمجتمعنا فهي بما تتضمنه من وازع أخلاقي وبما يفرضه الإيمان على المؤمن من علاقات مع غيره تقوم على أساس من الرحمة والمودة والعدل واحترام الغير .. وبما يلقنه لجماهير المؤمنين أن لا تخشى إلا الله وحده .. وأن أي طغيان أو تحكم إنما هو محاولة مشاركة الله في جبروته .. وان على الإنسان ان يقاوم الظلم والظالمين بيده ولسانه وقلبه .. وهو يحصن المؤمن ويبعده عن الانحراف بما يخلقه من علاقة مباشرة ودائمة ومستمرة بينه وبين ربه.

وهكذا فإن الدين يعصم الحاكم والمحكومين جميعا ويحضهم على فعل الخير ويشكل رقيباً مستمرا على ضمير كل منهم يحاسبه ويحثه عل تجنب الزلل.

وإذا كان العمل السياسي ينجح في أن يقوي ضمائر عدد من القادة ويحميهم من الزلل بإيمانهم ببعض القيم والمثل السياسية الدنيوية فإن الدين قادر على أن يمنح قيماً مماثلة للجماهير كافة.

وإذا كان الدين ضرورة فإن الاشتراكية هي الصيغة العصرية التي ولدت نتيجة لتطور الفكر الإنساني في صراعه الطويل بحثاً عن الحقيقة حتى توصل إلى كشف القوانين

العلمية التي تحكم حركة المجتمع وتطوره نحو حياة أفضل خالية من الاستغلال ..

وعلى ضوء فهمي هاتين الحقيقتين (جوهر الدين وجوهر الاشتراكية) بدأت هذه الدراسة.

***

ومنذ البداية أود أن أوضح انني خلال هذا النقاش لا أريد أن أقع في خطأ وقع فيه الكثيرون عندما ناقشوا المسألة على أساس محاولة نفي أن هناك تناقضاً بين الدين والاشتراكية، أو انه من الممكن للفكرين الديني والاشتراكي أن يتعايشا معاً دون صدام .. ولكني أريد أن أنهج في هذا البحث طريقاً آخر هو أن الإسلام وقيم العدالة والمثل العليا التي أتت بها الثورة الإسلامية الأولى على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) تمثل بالنسبة لنا في خطوطها الكلية والعامة المنطلق الذي يؤدي بنا عند الاسترشاد بها في ظروف عصرنا ومجتمعنا ووفق ضرورات العصر وقوانينه إلى طريق واحد .. وهو طريق الاشتراكية كامتداد طبيعي للتجربة الثورية الأولى في الإسلام ..

والحقيقة ان الإسلام بما نادى به من مبادئ ومثل وقيم وأفكار قد اصطدم منذ اللحظة الأولى وكان طبيعياً أن يصطدم بمقاومة ضارية من كبار التجار ورجال المال في مكة والرجعية الدينية هناك .. فقد شعر هؤلاء ان هذه المبادي الجديدة بما تنادى به من مساواة بين الناس بصرف النظر

عن جنسهم ولونهم وقوميتهم وأصلهم الطبقي .. وبما تنادى به من مبادئ العدالة والشورى تهدد مصالحهم الطبقية .. ولعل هذا خير دليل على أن الدين بما ينادي به من مثل وما قدم من تعاليم وأوامر هو دين للكادحين والمستضعفين أولاً، وان لم يكن أخيراً.

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض).

«صدق الله العظيم»

ولأنه دين المستضعفين فقد اتخذ موقفاً من هؤلاء الأغنياء الذين كانوا يتحكمون في ثروات مكة ..فسأخذ يسد أمامهم روافد الثروة الاستغلالية واحداً بعد الآخر ..

فإذا كان الرق أحد سبلهم إلى الثراء والجاه فقد وجه إليه الإسلام ضربات فتحت آفاقاً جديدة لتحرير العبيد وتصفية هذه العلاقة والحث على أن البشر جميعاً متساوون كأسنان المشط .. وقد شرع الإسلام من التشريعات والقواعد والنواهي ما يعجل بتصفية هذا النظام العبودي..

وكان الربا هو أيضاً أحد المصادر الرئيسية للثراء وخلق ما يمكن تسميته «بالتراكم» فحرم الإسلام الربا وأسقط ما على المدينين من ديون بأثر رجعي .. والحقيقة أن تحريمه للربا ليس مجرد موقف من الأثرياء لكنه يتضمن مضموناً أعمق.

فالربا هو في الحقيقة مال يكسبه الدائن بلا عمل .. وإنما يأتي عن طريق التسليف، أي أن المال يثمر مالاً جديداً

دونما جهد يبذل من مالك المال، وإنما يأخذه من كد المدين وكدحه، ومن هنا فإن الإسلام قد وقف منذ البداية ضد أسلوب كسب المال عن طريق المال دونما جهد بشري يبذل في هذا الكسب.

وهذا يعني ان القيم والأفكار التي أرستها تعاليم الإسلام إنما تمجد العمل وترى فيه المصدر الأول والأساسي للثروة.

والحقيقة ان القرآن الكريم لا يكاد يذكر الإيمان إلا مقرونا بلفظ العمل. وهو يؤكد دوما أن قيمة الإنسان فيما يعمل وان جزاءه إنما يكون بقدر ما يعمل ..

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

(وأن ليس للانسان إلا ما سعى).

وللرسول (صلى الله عليه وسلم) عشرات الأحاديث في الحض على العمل وتقديره .. وهو القائل في وصف يد إنسان كادح «هذه يد يحبها الله ورسوله».

والإسلام يؤكد ان الانتماء لطبقة الأغنياء لن يفيد صاحبه شيئاً ..

فالأقوياء والأغنياء لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم عند الله شيئا ..

(ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب ان ماله اخلده، كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة). ***

والحقيقة ان الإسلام لم يكتف بذلك ولا بما قدمه من اصلاحات اجتماعية أصيلة تحرر المرأة والرقيق وتقضي على العصبيات القليلة .. ولا تفرق بين الناس على أساس من القبلية أو الجنس أو اللون أو الأصل الطبقي.

وإنما هو يقدم نموذجاً أصيلاً للفهم الثوري لفكرة الملكية ولموقفه من مشكلات الفقراء والكادحين، فالتجربة الثورية الأولى للإسلام قد حددت موقفاً حاسماً إزاء الملكية، فالرسل عليه الصلاة والسلام يقول:

«الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار» ــ (رواه أحمد وأبو داود). ولست بحاجة إلى أن أقرر أن الماء والكلأ والنار كانت في ذلك العصر تمثل أهم مصادر الثروة في المجتمع (بالجزيرة العربية).

والموقف من قضية الأرض واضح أيضاً وضوحاً شديداً فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول:

«من كانت له أرض فيزرعها بنفسه أو يمنحها أخاه ولا يؤجره إياها ولا يكريها» أي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يستبعد الإجارة أو على الأقل لا يرغب في ذلك لأنه يقدس العمل ويراه الباب الوحيد للارتزاق، وكذلك حسبما جاء في الحديث الشريف «لا يؤجر أحد إلا بكد يمينه» «وأطيب الكسب عمل الرجل بيده» (رواه أحمد والحاكم).

ويروي عن علي بن أبي طالب قوله: ــ ان الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم ما يسع فقراءهم، وما يجهد

الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، إلا وأن الله محاسبهم حساباً شديد ومعذبهم عذاباً أليماً.

وهذا القول المأثور يستحق وقفة تتأمله فيها .. ففي أموال الأغنياء نصيب للفقراء يسع ما يحتاجون وسبب فقر الفقراء هو ما صنعه الأغنياء ! ..

وقد روى أبو سعيد الخدري عن الرسول(صلعم) انه قال: «من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له.. ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له».

قال أبو سعيد: «فذكر رسول الله من أصناف الأموال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل» (رواه مسلم) (والفضل هو الفائض عن الحاجة، والظهر هو الدابة المستخدمة في السفر أو القتال).

لست أعتقد انني بحاجة إلى تعليق.

***

وقد أتى الإسلام بمبدأ بالغ الأهمية، لو أننا طبقناه وفق ظروف العصر لأمكننا أن ندفع بالمجتمع خطوات هامة إلى الأمام ..

وهذا المبدأ هو مسئولية الحاكم في الإسلام عن رعيته، وعن اسعادها وعن ضرورة تدخله لحمايتها متخذا في ذلك كل الوسائل والسبل الضرورية لهذه الحماية لحقوق الضعفاء والفقراء.

وقد وجد هذا المبدأ الهام عدداً من التطبيقات، حددها الرسول في حديثه الشريف: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «والله لو عثر بغلة في العراق لسألني ربي لم لم تمهد لها الطريق يا عمر؟!».

وقد روى عن عمر بعد فتح مصر انه قال «لئن عشت ان شاء الله لأسيرن في الرعية حولا كاملا، فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني، أما أعمالهم فلا يرفعونها إلى، وأما هم فلا يصلون إلى، فأسرع إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .. والله لنعم الحول هذا».

وقال عمر أيضاً «أي عامل ظلم أحدا فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته !».

وذات يوم سأل عمر من حوله «أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل أكنت قضيت الذي علي؟ قالوا نعم، قال: «لا !! حتى انظر في عمله، أعمل بما أمرته أم لا ؟».

وفي عصر لاحق كان عمر بن عبد العزيز يبكي في صلاته فعندما سألته زوجته عن سبب بكائه قال: «اني تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض وضائع والعاري

المجهود والمظلوم المقهور والغريب الاسير والشيخ الكبير وذوي العيال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت ان ربي سائلي عنهم يوم القيامة فخشيت ألا تثبت لي حجة فبكيت !».

***

هذه هي الروح التي أراد لها الإسلام أن تسود .. ولنا أن نتأملها في صياغتها وفي ظروفها في مجتمع بدائي في أول مراحل التطور .. ولنا أيضاً أن نتخيل ماذا تعنيه مثل هذه الأفكار والتشريعات لو حاولنا أن نطبق جوهرها وروحها على مجتمع كمجتمعنا المعاصر.

وإذا كانت هذه هي روح الإسلام وجوهر تعاليمه وأساس تجربته الأولى فإن الفتوحات وتطور الأحداث قد أسرع بخلق طبقة مالكة جديدة .. فالفتوحات امتدت سريعاً لتشمل في أواخر عهد عمر ثلاث مجتمعات زراعية ذات تقاليد شبه إقطاعية راسخة في مصر والعراق والشام ..

وكان طبيعياً أن تؤثر قوانين وتقاليد هذه المجتمعات على قوانين التجربة الإسلامية الأولى في الاقتصاد والاجتماع والسياسة .. ووجدت الطبقة المالكة في هذه التقاليد ما مكنها من أن تحرف التجربة الثورية الأولى وأن تحول روافد الثروة إلى مصلحتها كطبقة ..

ومنذ هذه اللحظة بدأت محاولة لخلق تفسيرات ومفاهيم تمثل مصلحة هذه الطبقات الحاكمة وتحمي هذه المصالح.

والحقيقة أن هذه الأبعـــاد الثوريـــة للتجربـــة الإســـلامية الأولى لم تطمس معالمـــها نتيجـــة لفقـــدان المنـــهج العلمـــي في البحث فقط بـــل ان كثـــيرين مـــن الكتـــاب والمؤرخـــين قـــد تعمدوا طمس حقائق هذه التجربة وازاحـــــة ملامحـــها المتقدمـــة والثورية من الصورة التي رسمـــت لهـــا .. معتمديـــن ان يقدمـــوا للجماهير طوال عصور عديـــدة مـــن التـــاريخ صـــورة تخـــدم مصالح الرجعية، ولم يحاولوا ان يقدموا للجماهـــير في يـــوم مـــن الأيام تلك الصفحة المشرقة للتراث الإســـلامي الأصيـــل.

لكن سيطرة هذه الطبقات المالكة والغنيـــة علـــى مصـــادر السلطة، وقدرتها على وضع تفســـيراتها الخاصـــة لمـــا جـــاء بـــه القرآن .. لا يعني انها كانت وحدهـــا في الميـــدان.

فقد شهدت هذه المجتمعات صراعـــاً طبقيـــاً عنيفـــاً، بـــل ودموياً في كثير من الأحيان، وسرعان ما انعكســـت آثـــار هـــذا الصراع في وضع تفسيرات أخرى في الفقـــه الإســـلامي.

وكما حاول الرجعيون أن يفرضـــوا تفســـيرهم ..

بذلت القوى الثورية الكثـــير مـــن التضحيـــات والجـــهود وقدمت أفكاراً تمثل حتى الآن قبســـاً مـــن النـــور يضـــيء لنـــا الطريق من أجل فهم ثوري لتعـــاليم الإســـلام ..

وهكذا، ومنذ أواخر عهد عثمان شـــهد مجتمـــع الإســـلام صراعاً طبقياً انعكس في ميدان الفكـــر والتفســـير والاجتـــهاد.. وكانت هناك باستمرار مواقـــف وتفســـيرات متعـــددة. تفســـير الحاكمين وتفسير القوى الثورية التي تريـــد أن تحمـــي التجربـــة الإسلامية الأولى وان تطبقها وتطورها وفقـــاً لـــروح عصرهـــا.. ولعل ذلك هو الذي دفع علـــي بـــن أبي طـــالب إلى أن يقـــول

يوم التحكيم: «القرآن حمال أوجه !» بل ان فتنة التحكيم ذاتها كانت تعبيراً مادياً ودموياً عن هذا الصراع الفكري.

فقد اتفق علي ومعاوية على أن كلا منهما سوف «ينزل عند حكم الله وكتابه، وإلا يجمع بينهما غيره، وان كتاب الله بينهما من فاتحته إلى خاتمته» فكانت النتيجة مزيداً من الخلاف والتمزق والدماء، ولهذا قال علي:

«هذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال !».

ولما كان الحكم في أغلب فترات التاريخ الإسلامي يمثل حكم الفئات الأكثر قوة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فقد استطاعت هذه الفئات وهي في مراكز السلطة أن تزعم أنها تحكم باسم الدين والقرآن.

لكنها في الحقيقة كانت تحكم وفقاً لتفسيرها لتعاليم الدين والقرآن، ذلك التفسير الذي تستخدمه لتكبت به أية تفسيرات وأفكار أخرى كانت تحاول أن تجد سبيلها إلى الظهور.

ومع ذلك فقد شهد التاريخ الإسلامي منذ أواخر عهد عثمان صراعاً مجيداً تمثل في محاولة ثورية لفهم التعاليم الحقيقية التي أتت بها التجربة الثورية الأولى للإسلام، وظهرت مدارس فكرية واتجاهات متعددة في باب العقائد والعبادات والمعاملات، تعبر في الحقيقة عن المصالح الطبقية المتعارضة التي تحاول كل منها أن تؤكد مصالحها من خلال فهمها الخاص أو تفسيرها الخاص للدين والقرآن.

***

وكانت بداية الصراع بزعامة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، أحد الصحابة السابقين إلى الإسلام وواحد من الذين استوعبوا جوهر الفكرة الأساسية وتابعوها وهي تتطور وتجد سبيلها إلى التطبيق على يد رسول الله (صلعم). فإذا كان رأي معاوية أن الثروة هي ملك الله والحاكم يديرها نيابة عن الله، لأن الخليفة خليفة الله، ومن ثم فالحساب لله، والمسئولية أمام الله وحده، ولا حق للناس في سؤال أو حساب عن تصرفات الحاكم، فان أبا ذر يقاوم ذلك الرأي ومن ورائه جماهير المسلمين الفقراء معلناً أن الأموال والثروة ملك لله، ومن هنا فهي ملك عباد الله جميعاً، فتكون إدارة الدولة لها نيابة عن مجموع المسلمين .. ومن ثم فهي مسئولة عن تصرفاتها تجاههم.

وإذا كان عثمان قدر فض آراء أبي ذر ونفاه إلى «الربذة» فان صوته المدوي قد ظل يلهم الجماهير المسلمة آمادا طويلة .. لقد ظلت كلمات أبي ذر تشعل لهيب الثورة في قوائم المجتمع الملكي الاقطاعي الذي أقام صرحه الأمويون وترن في آذان الناس كلماته الخالدة ..

«إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذني معك !»

بل ان أبا ذر يستنهض همم الفقراء ويدعوهم إلى الثورة قائلاً:

«عجبت لرجل لا يجد في بيته قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ؟؟

وقول لمعاوية يعنفه بجرأة بالغة: «يا معاوية لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير!» فإذا هدده معاوية قائلاً: «خير لك

أن تنتهي عما أنت فيه !» أجابه: «والله لا أنتــهي حــتى تــوزع الأموال على الناس كافــة !».

ويصرخ أبو ذر في وجــوه الأغنيــاء قــائلاً: «ان المســلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكــثر مــن قــوت يــوم وليلــة، أو شيء ينفقه في ســـبيل الله أو يعــده لكــريم» (ابــن الأثــير ــ التاريخ جـــ٣ ص٤٣).

ثم هناك أيضاً عمر بن عبــد العزيــز الــذي بــادر فــور توليه الخلافة إلى مصادرة أموال الأسرة الحاكمـــة (بــني أميــة) وأدخل الثروة المصــادرة إلى بيــت مــال المســلمين باعتبارهــا «ثــروة الأمــة» لا ثــروة الأســرة الحاكمــة وقــال لمــولاه «مزاحم». ان أهلي اقطعوني ما لم يكــن لي أن أخــذه ول الهــم أن يعطونيه!» (الكامل لابن الأثــير جـــ ٥ ص٣٤).

وعندما أرس إليه بنو أمية عمتــه «فاطمــة» يعــدل عــن هذه المصادرة لأموالهم قال لهــا:

«ان الله بعث محمـــدا رحمــة ــ ولم يبعثــه عذابــا ــ إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده .. فترك لهم نهــرا شــربهم فيــه سواء، ثم ولى أبو بكر فترك النــهر علــى حالــه، ثم ولى عمــر فعمل على صاحبه فلما ولى عثمــان اشــتق مــن ذلــك النــهر نهرا. ثم ولى معاوية فشق منه الأنهــار. ثم لم يــزل ذلــك النــهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملــك وســليمان حــتى افضــى الأمر إلي وقد يــبس النــهر الأعظــم إلى مــا كــان عليــه!» (الكامل لابن الأثير جـــ ٥ ص٢٤).

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بمصــادرة ثــروات الأســرة الحاكمة من بني أمية بل انــه اســتدعى «غيــلان الدمشــقي»

وهو من غلاة أعداء بني أمية ليبيع متاعهم بالمزاد، فكان ينادي عليه قائلاً:

«تعالوا إلى متاع الخونة، تعالوا إلى متاع الظلمة». وكان مما ينادي عليه، وباعه جوارب خز (حرير) فباعها بثلاثين ألف درهم. (باب ذكر المتعزلة من كتاب المنية والأمل لأحمد بن المرتضى ص١٦).

كان هذه هو تفسير عمر بن عبد العزيز لتعاليم الدين.. فلما ذهب واتى من بعده هشان بن عبد الملك حاول أن يقدم تفسيراً معاكساً، فأعاد الأموال لبني أمية .. أما غيلان الدمشقي فقد صلب وقتل !.

***

ومع استمرار الصراع ظهرت عشرات من الفرق الإسلامية، لكل منها تفسيرها الخاص ومحاولتها المتميزة لفهم تعاليم الإسلام .. ولم تقتص هذه الخلافات على باب الأحكام والمعاملات بل ألها قد امتدت أيضاً إلى باب العقائد والعبادات.

ويروي العالم الإسلامي الأستاذ أمين الخولي في حديثه عن التطور في العقائد في كتابه (المجددون في الإسلام) كيف كان الخلاف جاداً والصراع حاداً حول القول بخلق القرآن، وهو خلاف استمر أجيالاً وامتد سنين، وقطع الخلفاء فيه بأنفسهم رقاباً في الوقت الذي رقت فيه قواهم على حمل السلاح في فتح أو قتال .. كما شهد أولئك الخلفاء تعذيب علماء أبرار خلعت أعضاؤهم وكبوا على وجوههم وديست بطونهم بحضرة أولئك الخلفاء، كما كان يحمل إلى

أبواهم علماء عــاملون، مــن المحــاء دولتــهم كمصــر مثــلاً، وأرطال الحديد على جســومهم وفي أعناقــهم ليقولــوا بعقيــدة القائلين بخلق القــرآن، لأنهــا فيصــل الكفــر والإســلام . ثم رفعت المحنة بعد ما كان، وترك الناس يعتقــدون مــا يعتقــدون، فإن قالوا بخلــق القــرآن فــهم مؤمنــون، وان انكــروا خلــق القرآن لم يكونوا كــافرين» (ص٤٩، ٥٠).

ويوضح الأستاذ أمين الخولي كيف امتــد هــذا الصــراع الفكري إلىدروس النحو فإذا قــال إنســان «شــفى الطبيــب المريض» قال المعتزلة انه حقيقة، وقال السنية انــه مجــاز بمعــنى ان الله هو الذي شفى المريــض !.

وهذا تعبير عن الخلاف بين أهل الســنة والمعتزلــة حــول السببية وأفعال العباد .. فنفي السببية وانكارها هــو مــا آثــره أهل السنة في حين آثر المعتزلة تقريــر الســببية»(ص٥١).

ويمكن لمثل هذا الحديــث أن يطــول . فصــور الخــلاف كثيرة وعديدة ومتشعبة، والفرق عديدة هــي أيضــاً، والخــلاف بينها حول مسألة واحدة قد يستغرق كتبــاً بأكملــها

ولكننا فقط نريد أن نوضح كيــف أن تعــاليم الإســلام لم يكن من الممكن لها أن تفهم فــهماً واحــداً، وإنمــا بــاختلاف المجتمعات واختلاف الطبقــات واختــلاف القــوى الاجتماعيــة كان من الطبيعي أن تظهر مفاهيم مختلفــة وأن تتصــارع وفقــاً لتصارع المصالح التي أنبتتــها.

وهذا الخلاف طبيعي ومنطقي، فالإســلام، كديــن ودنيــا وعقيدة تصلح لكل زمــان ومكــان، كــان مــن الطبيعــي أن تقتصر دعوته على المثل العليا والمبــادئ الكليــة وبذلــك تــرك

باب الاجتهاد واسعاً على مصراعيه ومفتوحاً على الدوام وفقاً للزمان والمكان وظروف العصر.

والحقيقة ان الإسلام يحمل في طياته أسساً للتطور تهيئه لذلك وتعده لتحقيقه في يسر ودون مصادمة لشيء من تطور الدنيا التي تعيش حوله سواء من الناحية النظرية أو العملية.

ويحدد الأستاذ أمين الخولي أسس التطور في الإسلام فيقول أنها تتمثل فيما يلي:

١ـ ان الدعوة موجهة للناس كافة، وموجهة إليهم في كل زمان ومكان، ومن هنا فإن حياة الإسلام تتسع «ذلك الاتساع الذي لا يحدده زمان ولا مكان، وتكون مواجهته للتغيرات التي لا مفر منها، بصورها غير المحدودة، فيكون تغير المناطق جوا وعمارة وحضارة مما يجعل لكل بيئة من هذه البيئات حاجاتها المختلفة، التي تطلب التدبير والتنسيق مع أصحاب الدعوة الإسلامية الأولى في الجزيرة العربية بجويها الطبيعي والمعنوي».

(ص٣٩ ـ المجددون في الإسلام).

٢ـ اقتصار دعوته في الغيبيات واراحته العقل منها بتركه التفاصيل .. «فهو مثلاً يطلب من اتباعه في الإيمان بالألوهية أن يدركوا عن الله أنه ليس كمثله شيء، فلا يخبر عن أفعال من أفعال البشر.. وهذا الوضوح واليسر في العقيدة، لن يدع فرصة للصدام والخلاف قليلاً أو كثيراً بين العقيدة، وبين ما يستطيع الإنسان أن يكشفه من سنن هذا الكون وأسرار مخلوقاته لأنه متخف من تلك الغيبيات المبهمة الموهمة». (المرجع السابق ص ٣٩ـ٤٠).

٣ـ عدم تورط الإسلام في كتابه الذي هو أصل أصوله، في بيان شيء عن نشأة الحياة على الأرض وظهور الإنسان وما مر به ذلك كله من أدوار «وراحة الإسلام من هذا التورط تدعه يترك للعلم طريقه، يخب فيه ويضع معلنا له مقدماً أنه مستعد لتقبل كل ما يجيء به العلم من ذلك وتقريره دون أن يحتاج إلى اطراح ما يتلقه، ظلما وعدوانا من الإسرائيليات التي أقحمت عليه أو من التفسير المتثاقل الذي جهر أصحاب الإسلام منذ أكثر من ألف عام بأنه لا أصل له». (المرجع السابق ص٤٢).

٤ـ عدم تورط الإسلام في شيء من تفاصيل الأمم والرسل التي عرض لأحوالها في إيجاز أو مع بعض التفصيل بياناً لسنن الاجتماع في حياة الدعوات والرسالات وكيف تلقاها الناس وكيف قاوموها وكيف تم انتصارها أخيراً

وإذا شعر الإسلام بأنه يستطيع أن يمضي مع أصحاب التاريخ دون تأزم كما مضى مع أصحاب طبقات الأرض دون أزمة وكما مضى مع أصحاب العلم الطبيعي دون ارتباك فإنه يستطيع أن يتقدم على تطور الحياة منطلقاً وكذلك يستطيع الإسلام أن يطور نفسه مع هذا العلم المتقدم وأن يصبح رجله المتحدث عنه رجلاً مؤمناً بالعلم بكل سهولة ومع اقتدار لا يهز شيئاً من أساس ما اعتقده هذا المتدين والتزمه» (المرجع السابق ص ٤٣ـ٤٤)

٥ـ اقتصاره في تنظيم الحياة العملية بالعبادات وغيرها ـ بعد تيسير الحياة الاعتقادية ـ على الأمور الكلية والأصول العامة والأصول الشاملة دون التفاصيل المفردة والجزئيات الصغرى.

وهكذا فإن الإسلام بطبيعته هذه يدفع الناس إلى استعمال قواهم الإنسانية وطاقتهم البشرية من اعتبار شيء بشيء وإثبات حكم المثيل لمثيله والانتفاع بالنص في ذلك دون تجميد ولا وقوف بل مع الجد الواجب في الاجتهاد للاستنباط .. (المرجع السابق ص ٤٤).

٦ـ جعل الاجتهاد أساساً للحياة الإسلامية، وما الاجتهاد إلا الانطلاق مع الحياة وفاء بجديد حاجتها.

«ولا تفطي تلك الحاجة وتدفع تلك التطورات الضرورية إلا بأن يكون في المجتمع من يضمن مسايرة الفكرة للحياة ووقايتها من عوادي الجمود وذلك بالتجديد الذي لا يكون مع منطق الحياة والواقع إلا تطوراً».(المرجع السابق ص ٤٥).

وهكذا فإن الإسلام دين التطور الذي لا يعرف الجمود والذي يدعو الناس باستمرار إلى الاجتهاد في شئون دينهم ودنياهم وإلى تحكيم العقل كوسيلة للمعرفة ولمواكبة كل جديد في الحياة.

وها هو الإمام الشافعي يؤكد «ان التجربة هي العقل الحق». بل اله قد حرص على أن يؤكد لتلاميذه، «إذا ذكرت لكم ما لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه فان العقل مضطر إلى قبول الحق !».

***

هذه لمحة سريعة عن التعاليم الإسلامية الحقة .. وعن التجربة الإسلامية الأصيلة ولكي تكتمل الصورة فلابد من

لمحة سريعة أيضاً عن الاشتراكية وعن قوانينها العلمية ولنبدأ أولاً بهذا السؤال ..

وما هي الاشتراكية .. ؟ والسؤال سهل .. فإن أبسط ما يجيب عليه الإنسان الاشتراكي هو أن يحاول أن يجد تعريفاً للمبدأ الذي يؤمن به. لكن الصعوبة في الإجابة على هذا السؤال تمكن في ان الاشتراكية نظام دنيوي شامل يمس كافة جوانب الحياة.

فإذا حاولنا تعريفها اقتصادياً قلنا أنها نظام يرفض شكل الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الرئيسية، ويؤمن بملكية الدولة ـ دولة الشعب ـ لهذه الوسائل.

وإذا حاولنا أن نعرفها سياسياً قلنا، إنها نظام يؤمن بأن السلطة يجب أن تكون في يد الشعب الكادح كله وليس في يد حفنة أو طبقة أو جماعة.

وإذا أردنا تعريفاً اجتماعياً لها، فهي النظام الذي يؤمن بحق الإنسان في العمل وحقه ي أن يجني ثمار عمله وعلى قدر ما قدم من عمل دون أن يسمح لأي فرد بأن يستغله وأن يعيش على ثمرات كده .. وهي النظام الذي يؤمن بأن الإنسان هو أثمن ما في الوجود وأنه يتعين على الدولة أن تهيئ للمواطنين جميعاً وعلى قدم المساواة العلم والرعاية والخدمات التي تمنحه فرصة العيش الإنساني.

وإذا نظرنا من ناحية التاريخ فهي مرحلة من مراحل تطور المجتمعات تلي النظام الرأسمالي وتبنى على أنقاضه. فالمتناقضات الكامنة في المجتمع الرأسمالي ذاته تؤكد حتمية عجزه عن الوفاء بحاجات التقدم وحاجات الجماهير وتؤكد

عجزه عن أن يجد حلاً أصيلاً لهـذه المتناقضات الأمر الذي يؤكد حتمية الحل الاشتراكي.

والحديث عن المتناقضات في المجتمع الرأسمالي قد يتطلب تطويلاً عن استيفائه عجالة كهذه لكننا سنكتفي بضرب مثال واحد .. عن تطور علاقات الإنتاج في المجتمع.

ففي المجتمع الإقطاعي كان الصانع الحرفي يعمل بيديه ويمتلك آلاته ويمتلك إنتاجه، وقلما كان يستخدم عمالاً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، وعلى أية حال فإن هؤلاء الصبية أو العمال الذين كانوا يعملون لديه، أو بالدقة يتدربون عنده، كانوا يأملون أن يصبحوا أسطوات في يوم من الأيام وكثيراً ما كانوا يحققون بغيتهم هذه.

فلما جاء القرن التاسع عشر واخترعت الآلات الحديثة وسيطر الرأسماليون عليها واستطاعوا أن يستقطبوا الثروة كلها في أيدي حفنة قليلة من الأفراد .. وأدى تقدم التكنيك وتقدم الآلة إلى انحصار ملكيتها في أيدي أصحاب الثروات الضخمة نتج عن ذلك كله ظاهرة هي:

ان الثروة والربح والملكية تتركز وتتمركز باستمرار في أيدي قليلة هي الرأسماليون بينما العمل والعرق والكدح من نصيب مجموع العاملين.

وهذا هو أحد المتناقضات الإسلامية في المجتمع الرأسمالي .. التناقض بين العمل الجماعي والملكية الفردية لأدوات الإنتاج.

وكلما ازداد المجتمع الرأسمالي تقدماً .. كلما ازداد تركز الثروة في أيدي الرأسماليين ومن ثم ازداد هذا التناقض حدة.

وإذا سألنا أنفسنا ما هو حل هذا التناقض .. فالجواب بسيط..

العمل الجماعي يجب أن تقابله ملكية جماعية ..

وبدون ذلك سيظل العمال الذين لا يملكون يصارعون الملاك الذين لا يعملون.

وليس هذا هو التناقض الوحيد في الرأسمالية لكنني أكتفي به لأوضح كيف ان الاشتراكية ليست إنتقاءاً اختيارياً بقدر ما هي طريقة تقود إليه حتماً القوانين الاجتماعية، وطبيعة المتناقضات الكامنة في المجتمع الرأسمالي ذاته.

ولم يكن اكتشاف هذه المتناقضات مصادفة ولا بغير بحث دقيق ..

فالثورة الفرنسية وغيرها من الانتفاضات التي شملت أوروبا الإقطاعية والتي استخدمت فيها الجماهير، وجماهير الكادحين على وجه التحديد، سلاحاً لقهر الملكية والإقطاع.. هذه الثورة التي مكنت الرأسمالية من السلطة تحت شعارات براقة (الحرية .. الإخاء .. المساواة) لم تمض عليها سوى سنوات قلائل حتى أثبتت ان حريتها وأخاءها ومساواتها ليست سوى لافتات تحمي استغلالاً بشعاً وقهراً طاغياً ينظمه الرأسماليون ويوطدون أركانه.

ولم تمض سوى سنوات قلائل حتى اكتشفت الجماهير الكادحة وطلائعها من المثقفين والثوريين ان هذا الاستغلال لن يقضى عليه بغير ثورة جديدة ..

ومن خلال هذا الصراع الدامي والكفاح المنظم والبحث الجاد حول أسباب الاستغلال وحول وسائل سيطرة الطبقة الرأسمالية والقوى التي تمنحها القدرة على التحكم والاستغلال.

ومن خلال هذا كله بدأت مجموعة من القوانين العامة تتكشف لتحدد معالم الصراع الطبقي وتاريخه وتحدد صورة تطور المجتمعات ودور العوامل الاقتصادية في هذا التطور وتحدد القوانين التي تحكم هذا التطور والتي تحدد أشكال الصراع حوله.

والحقيقة أن هذه القوانين ليست من صنع أحد .. فهي قوانين موضوعية كانت وستظل تعمل عملها. لكن القيمة الأساسية للفكر الاشتراكي العلمي ترجع إلى اكتشافه لهذه القوانين، وصياغتها صياغة ملائمة وعلمية .. وكما أن هذه القوانين العامة ليست من صنع أحد فهي ليست ملكاً لأحد .. بل تراث إنساني عام .. يتعين على كل مخلص لقضية التقدم الإنساني أن يستفيد منها وأن يهتدي بها في نضاله.

وفي مصر ثارت قضية الاشتراكية أيضاً ليس على أساس انتقاء اختياري وإنما كطريق حتمته طبيعة ظروف مجتمعنا..

فبعد ثورة يوليو وبعد أن أعلنت بلادنا رفضها لطريق التبعية للاستعمار وتصميمها على المضي في طريق الاستقلال الكامل .. وفي نفس الوقت عزمها على أن تقضي على التخلف والفقر الذي غرسه الاستعمار في أرض بلادنا.

كانت هذه الخطوة بداية تتابعت على أثرها خطوات أخرى كل منها ضرورية وحتمية ومنطقية.

فالقضاء على التخلف يتطلب استثمارات سنوية كبيرة، وهذه الاستثمارات أمن للمجتمعات الرأسمالية الغربية أن تحصل عليها كنتيجة للاستعمار .. أو كنتيجة لتراكمات أرباح خيالية حققت على حساب شقاء العمال وكدهم.

غير أن ظروف العصر لم تعد — كما يقول ميثاقنا الوطني «تسمح بشيء من ذلك .. ان التقدم عن طريق النهب والتقدم عن طريق السخرة لم يعد أمراً محتملا في ظل القيم الإنسانية الجديدة».

(الميثاق الوطني، الباب السادس. ص٧٢).

وهكذا فإن تطور نظام الإنتاج في المجتمع الرأسمالي والتقدم الهائل في الآلات ووسائل الإنتاج وضخامة الاحتكارات العالمية وسيطرتها لم ندع أمام البلاد المتخلفة إذا أرادت أن تسلك سبيل التنمية الرأسمالية سوى أحد طريقين:

إما حماية جمركية عالية تتحمل الجماهير عبئها ..

أو تبعية كاملة للاحتكارات العالمية الأمر الذي يعني تهديد الاستقلال الوطني والعودة لسياسة الخضوع للاستعمار ..

وليس بإمكان إنسان شريف أن يقبل سلوك أي من هذين الطريقين.

ليس هـــذا فحســب بــل ان ضخامــة المشــاريع الــتي تتطلبها خطـــة التنميـــة لا يســـمح مطلقـــاً بتركـــها للجـــهود الفردية التي لا يحركها غير دافع الربــــح.

ومن ثم فإن عملية التقـــدم والتنميـــة إذا أردنـــا لهـــا أن تسير في طريق التطور المستقل والمتخلـــص مـــن كـــل أشـــكال التبعية للاستعمار وتتطلب كما يقـــول الميثـــاق الوطـــني ثلاثـــة شـــروط:

١ـــ تجميع المدخرات الوطنيـــة.

٢ـــ وضـــع كـــل خـــبرات العلـــم الحديـــث في خدمـــة استثمار هذه المدخـــرات.

٣ـــ وضع تخطيط شامل لعملية الإنتـــاج.

وهكذا يمضي الميثاق الوطـــني مؤكـــداً«أن ذلـــك يضـــع نتيجة محققة أمام إرادة الثورة الوطنية لا يمكـــن بغـــير الوصـــول إليها أن تحقق أهدافها وهـــذه النتيجـــة هـــي ضـــرورة ســـيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج وعلى توجيـــه فائضـــها طبقـــاً لخطة محـــددة.

ان هذا الحل الاشتراكي هو المخـــرج الوحيـــد إلى التقـــدم الاقتصـــادي والاجتمـــاعي وهـــو طريـــق الديموقراطيـــة بكـــل أشكالها السياسية والاجتماعيـــة». (الميثـــاق ص٧٤).

وهكذا فإن اللجوء إلى الحل الاشـــتراكي كـــان ضـــرورة حتمية أمام الدول المتخلفة الـــتي تحـــاول أن تقـــدم لجماهيرهـــا حياة أفضـــل.

وإذا كـــانت الظـــروف الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة والسياسية تفرض هذا الحل .. فإن الـــدول المختلفـــة لا تقبلـــه

مغمضة العينين، بل تأخذ بقوانينه العامة وتضعها في التطبيق وفقاً لظروف كل منها ..

ان الفكر الاشتراكي العلمي فكر متعدد الجوانب كما قلنا

وليس لزاماً على الاشتراكي أن يأخذ به كله أو يتركه كله ..

وليس لزاماً عليه أن يأخذ بوسيلة معينة لتحقيق أهدافه ...

وليس لزاماً عليه أن يتقيد بتجربة نجحت في مكان لكنها قد لا لاتنجح في مكان آخر.

والذي لا شك فيه أن لجوء الدول النامية إلى منهج الاشتراكية العلمية ليس مجرد تأكيد لصحة هذه النظرة لكنه سبيل أكيد لتطويرها وإثرائها بعشرات من التجارب والأفكار والآراء التي تنبع من تطبيق القوانين التي اكتشفها هذا الفكر على الواقع الحي لكل بلد من البلدان ..

***

اننا ونحن نخوض معركة البناء الاشتراكي في بلادنا يتعين علينا أن نستخدم هذه القوانين العامة كمنهج يهدينا في العمل الثوري، لكننا نستخدم هذه القوانين بعد أن نضيف إليها مضموناً قومياً وروحياً يتمشى مع تراثنا القومي والديني مما يمكن هذه القوانين من أن تفعل فعلها على أسس موضوعية وطبيعية، ومما يمكن لها أن تصبح إلهاماً حقيقياً وأداة فعالة لتعبئة ملايين الجماهير.

والآن وبعد هذا العرض لأسس التطور في الإسلام، وللأسلوب الذي سننهجه في فهم تعاليم الإسلام، وبعد العرض السريع لأسس الفكر الاشتراكي، فانه من المفيد أن

نعرض هنا لموقف الإسلام من بعض القضايا الأساسية التي تلقي ضوءا على جوهر التعاليم الإسلامية الحقة ..

ولنبدأ بقضية نظام الحكم وشكل الدولة وأسلوب اختيار الحاكم ومسئولياته، وهي في اعتقادنا واحدة من القضايا الهامة والأساسية لأي مجتمع من المجتمعات .. وهي إحدى المسائل التي ثارت حولها خلافات كثيرة وعنيفة ..

وأول ما يلفت النظر في هذا الموضوع هو ما يشير إليه الدكتور محمد أحمد خلف الله في مقال له بعنوان (النظام السياسي الإسلامي للدولة القومية) إذ يقول: «ان النظام السياسي الإسلامي لا يعتبر من المقدسات التي نقف أمامها عاجزين حيارى لا ندري ماذا نفعل مع هذه التحديات التي تجابهنا بها هذه الحضارة العلمية الصناعية المعاصرة».(مجلة الكاتب ــ عدد إبريل ١٩٦٦ ص٦٤).

وبعد أن يتحدث عن طريق اختيار الخلفاء الراشدين ويؤكد أنها ليست ملزمة. وأنها لا تصلح كأساس للنظام السياسي الحالي . وذلك لسببين هامين هما ان طرق الاختيار متعددة، ولم تنهج أسلوباً واحداً، وان هذه الطرق كانت من صنع البشر وليس للقرآن الكريم أو الحديث الشريف أثر في قيامها.

وبعد أن يوضح د. خلف الله ان القرآن الكريم والسنة الشريفة لم يتعرضا مطلقاً لأسلوب اختيار الحاكم ولا شكل الدولة الأمر الذي دفع الناس إلى اختيار طرق متعددة ومختلفة يقول ان «ترك القرآن الكريم لهذه المسألة لا يفسر أبداً إلا على أساس واحد، هو ان العليم الحكيم قد قدران من المسائل التي يجب أن يعالجها الناس بأنفسهم

وليس يلزم أبداً أن يكون للقرآن الكريم موقف منها أو رأي فيها .. لقد تركها القرآن، وليس يجيز أبداً أن نذهب إلى أن هذا الترك لم يكن مقصوداً. وقد قرر سبحانه تركها للناس وقدر إلى جانب هذا الترك أن يكون الأمر شورى وأن يكون التفكير جماعياً».

أما شكل الشورى وطريقتها فقد تركت لتتحدد وفقاً لكل عصر ومكان ويورد الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير المنار شرحاً لفكرة الشورى فيقول:

«وشاورهم في الأمر العام الذي هو سياسة الأمة، في الحرب والسلم، والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ـ أي دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة ـ (غزوة أحد) ـ وان أخطئوا الرأي فيها، فان الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة دون العمل برأي الرئيس وان كان صواباً». (المقال السابق ص٦٧).

وهكذا فإن الإسلام يترك للمسلمين أن يحددوا، وفق ظروف عصرهم، أسلوب الحكم وشكل الدولة، قاصراً تعاليمه على مبدأ كلي هو «الشورى ومعارضة الاستبداد» تاركا تفسير هذا المبدأ الكلي وتطبيقه للفكر المتجدد وفقاً لتطور العصر وتقدمه.

***

فإذا انتقلنا إلى قضية هامة أخرى وهي قضية الأموال والملكية .. فاننا نجد أن هناك آيات كريمة عديدة تناقش هذا الموضوع .. فهناك قوله تعالى:

(وآتوهم مال الله الذي أتاكم) وقوله (وانفقوا مماجعلكم مستخلفين يه).

وقوله تعالى:

(وما أموالكم إلا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، إلا من آمن وعمل صالحا ..).

وقوله تعالى.

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقوله تعالى:

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب).

وهناك أيضاً السنة الشريفة، وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض أحاديث الرسول الكريم عن اشتراك الناس في النار والماء والكلأ لكننا سنهتم هنا بالتطبيق العملي الذي مارسه الرسول الكريم (صلعم) وبعض الخلفاء من بعده.

والحقيقة ان الرسول قد اتخذ حلولا متعددة في قضية الأموال، فإذا تأملنا موقفه من مسألة «الأرض» وهي التي تمثل الجانب الرئيسي في ثروة ذلك المجتمع، نجد أن الرسول قد خصص بعض المراعي، وهي أرض النقيع بالمدينة، لتكون مراعى عامة يرعى فيها المسلمون أبلهم جميعاً وعلى السواء.

فلما جاء عمر بن الخطاب جعل أرضا في «الزبدة» مراعى عامة لكل المسلمين، فجاءه أهل هذه الأرض طالبين ردها إليهم، وقالوا له يا أمير المؤمنين: «انها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية واسلمنا عليها في الإسلام، علام تحميها؟» (أي تجعلها عامة)، فأطرق عمر ثم قال: «المال مال الله، والعباد عباد الله، والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا في شبر».

(رواه محمد. وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام في «الأموال» ص٢٩٨).

وهناك أراض أخرى فتحت بحد السيف ثم وزعت على جيوش المسلمين.

وأرض ثالثة كأرض خيبر أقر زارعوها فيها على أن يدفعوا الخراج.

فلما جاء عمر بن الخطاب وفتحت في عهده أرض العراق رفض أن يوزعها على الفاتحين كما فعل الرسول الكريم، واصطدم في ذلك مع عدد كبير من الصحابة الذين أصروا على توزيع الأرض على فاتحيها كما فعل الرسول.

وكان يواجههم قائلا: ان الظروف قد تغيرت وان المسلمين لن يفتحوا أرضا أغنى من هذه الأرض، ولهذا فانها يجب أن تظل ملكا لبيت مال المسلمين لينفق منها على الثغور والجيوش .. وقال انها بذلك ستبقى ملكا للمسلمين الحاليين وللأجيال القادمة.

وقد ميز عمر بين نوعين من الأرض .. أرض أقر فيها زارعوها في نظير دفع الخراج .. أما النوع الآخر وهي

الأرض التي كانت مملوكة للقواد وغيرهم من كبار رجال الدولة المفتوحة فقد صودرت أملاكهم وسميت «الصفايا» وكانت تؤجر للناس ويدفع إيجارها لبيت المال مباشرة.

ومن كل ذلك نرى أن الإسلام، مهتديا بالمبدأ الأساسي الذي نسار عليه دوما، لم يحدد شكلاً معيناً للملكية.. لكنه تركها حسب ما يراه الناس وفقاً لظروفهم ومصلحة المسلمين.

غير أننا لا نود للقارئ أن يظن أن الإسلام لم يكن له موقف من قضية الاستغلال .. بل ان الإسلام قد اتخذ في وضوح تام موقفاً منحازاً للجماهير غير المالكة.

فقد وقف ضد تركيز الثروة. سواء أكانت في الأرض أو الأموال .. ولنقرأ الآية الكريمة .. (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون).

ويرى سيدنا علي بن أبي طالب ان الكنز هو المال الزائد عن الحاجة وقدر حاجة الإنسان بأربعة آلاف درهم وما زاد عليها فهو كنز .. وهو حرام.

وآية كريمة أخرى (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (والعفو هو مازاد عن الحاجة).

وآية كريمة ثالثة: (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير).

ولنتأمل هنا قوله تعالى (مما جعلكم مستخلفين فيه). أي أن المال مال الله والناس وكلاء فيه.

والمفسر الكبير الزمخشري صاحب تفسير القرآن المعروف (بالكشاف) يخاطب حائزي الأموال بقوله: «ان الأموال التي في أيديكم انما هي أموال الله بخلقه وانشائه لها وانما مولكم اياها وخولكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فليست هي أموالكم في الحقيقة وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فانفقوا منها». (الكشاف جـ٢ ص٣٤٣).

فإذا انتقلنا إلى تفسير معاصر لهذه الآية الكريمة نجد الأستاذ أمين الخولي يقول أن القرآن «لا يعطف على الملكية الفردية، ويكاد ينكرها مثل قوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) وقوله: وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) فالمال مال الله لا مال الناس.(أمين الخولي. كتاب «في أموالهم» ص٣١).

ويتحدث أمين الخولي أيضاً عن الملكية فيقول ان أمرها «لو صار عموماً محضاً واشتراكاً كاملاً ونسيانا للذات تماماً لما رأى فيه القرآن بأسا ولا حال هدية دونه». (في أموالهم ص٣٣).

بل ان الشيخ أمين الخولي يفسر أن المال مال الله قائلا:

«حق الله هو في لسان اليوم حق المجتمع» (في أموالهم ص ٤٠).

أي أن المال مال المجتمع وملك للأمة.

والإمام الغـزالي يتحـدث عـن أن المتصوفـة المسـلمين يشبهون المال بالماء ويجعلون تناول المال مثـل شـرب المـاء وإذا كان «الماء لا يشرب منه أكثر مـن الحاجـة فأقويـاء النفـوس الصالحون لا يشـربون مـن المـاء أكـثر مـن حاجتـهم، ولا يجمعون الماء في القـرب والروايـا يـدورون بهـا معـهم، بـل يتركونها في الأنهار والبراري للمحتـاجين إليـه» (أحيـاء علـوم الدين جـ٤ ص١٦٦).

وهناك فيلسوف إسلامي آخر هـو السـيد جمـال الديـن الأفغاني الذي يتحدث صراحة عـن الاشـتراكية معلنـاً بقـوة «ان أول من عمل بالاشـتراكية بعـد التديـن بالإسـلام هـم أكبر الصحابة وأعظم المحرضين على العمـل بالاشـتراكية مـن أكابر الصحابة أيضاً». (خاطرات جمـال الديـن لمحمـد باشـا المخزومي طبعة بـيروت ١٩٣٠).

ونحن إذ نسوق هـذه الأمثلـة جميعـاً نريـد أن نوضـح للقارئ مسـألتين:

أولاهما: أن القرآن والسنة لم يحددا شـكلاً واحـداً محـدداً مـن أشكال الملكية يتعين على المسـلمين الالـتزام بـه، بـل الملكية من أبواب المعاملات التي يقـول الرسـول الكـريم فيها «المعاملات طلق والعبـادات اذن».

وثانيتـهما: ان الإسـلام والـرواد الأول للتجربـة الإسـلامية وكثيراً من فقهاء المسلمين على مـر العصـور يتخـذون موقف المسـاندة للجماهـير غـير المالكـة، ولفكـرة ان الملكية ليست تحكمـاً بيـد فـرد، وانمـا هـي وظيفـة اجتماعية يجب أن تسخر أو تنظيم لخدمة المجمـوع وفقـاً لضرورات العصر وظروفـه.

وبهذه الروح وبهذه الأفكار الكلية العامة التي تسندها مثل وقيم ومبادئ تحض على فعل الخير.. وعلى الاهتمام بمصالح الجماهير.. يمكننا أن نحدد طريقنا إذا ما واجهنا مجتمع رأسمالي معاصر تعيش فيه فئة قليلة لا تتعدى ½ % أو 1% متحكمة في كل مراكز الثروة والجاه والنفوذ. ومستخدمة نفوذها هذا لمستحوذ باستمرار على كل خيرات المجتمع .. الأمر الذي يؤدي إلى أن يزداد الأغنياء غنى ويزداد الفقراء فقرا.

ومع التطور في استخدام العلم والتكنيك الحديث فان سيطرة المجتمع على مصادر الثروة والقوة في المجتمع سوف يؤدي إلى احتكارها لمصائر المجتمع وسبل عيشه بل الها تحول المجتمع كله إلى جهاز يعمل في خدمتها ولخدمتها.

بل ان ذلك يمتد أيضاً على النطاق العالمي كله .. فنشهد اليوم تلك الاحتكارات العالمية التي تستولى على ثروات الشعوب الفقيرة وتحتكر مصادر رزقها وتحاول أن تجر العالم كله إلى مهالك خطيرة تحقيقاً لمصالحها الأنانية.

والغريب أن جماهير المسلمين في كل أنحاء العالم هي الضحية لهذا الاستغلال وهي التي تعاني من وطأته وتعيش في حالة من الفقر والتخلف لا يمكن لدينها ان يرضاه.

والآن وعلى ضوء كل ما سبق إذا سألنا انفسنا سؤالاً محدداً لقيم به كل ما يجرى الآن على أرض بلد مسلم هي مصر حيث يجب أن تقضي على الملكية المستغلة وتمنح للجماهير فرصة أن تبنى حياتها ومستقبلها وتستحوذ الدولة على مصادر الثروة الرئيسية لتوجهها لزيادة الدخل القومي والخير المجموع.

ألا يكون كل ذلك امتداداً أصيلاً وصريحاً للتراث الإسلامي الحقيقي ولجوهر تعاليم الإسلام.

ان ما قلناه في صدر هذا المقال يؤكد ان التجربة الثورية الأولى وتعاليم الإسلام اكلية قد وضعت من القواعد والتجربة ما إذا طبق على ظروف المجتمع الراهن في بلادنا لما عنى سوى طريق البناء الاشتراكي..

***

ونتحدث بعد ذلك عن موضوع هام آخر هو موضوع علمانية الإسلام ..

وليس المراد بعلمانية الإسلام هو ان الدين الإسلامي يتخذ من العلم موقف التمجيد والثناء فهذا معروف وواضح. ولكن المراد به هو ان الدين الإسلامي قد أوجد السبيل الشرعي لأن يتواءم وعلى الدوام مع العلم والمكتشفات والمنجزات العلمية.

ولقد رأينا من قبل كيف ان تعاليم الإسلام كما يقول الأستاذ أمين الخولي لم تتورط في بيان شيء عن نشأة الحياة على الأرض وظهور الإنسان وما مر به من أطوار .. واكتفت بحقائق كلية بعيدة عن التفاصيل وبعيدة عن أن تضع المؤمن في مجابهة الحقائق والمكتشفات العلمية.

بل ان الدين الإسلامي الحنيف يرى كما يقول الشيخ سعاد جلال في مقال قيم له حول هذا الموضوع «ان علاقة الإنسان بالكون خاضعة لفعل النواميس الكونية تقديراً وتشريعاً وان وجود الإنسان وأفعاله الارادية محكومة بهذه النواميس الطبيعية المحيطة بحياته والتي من شأنها ان تبقى مع

استمرار وجوده وان تجدد الجمال لحاجات نفسه .. أي أن الله لا يشرع لعباده شرعاً أو يلزمهم بتكليف فيكون منافياً لمقتضى هذه النواميس وحكمها في حياة الفرد أو حياة المجتمع الذي يعيش في إطاره». (مجلة الكاتب عدد سبتمبر ١٩٦٥ ص ٥٣).

وتعبيراً عن هذا الموقف يؤكد الفقيه الإسلامي شمس الدين بن القيم «ان شرع الله لا ينافي قدرة الله» ومعناه ان الله لا يشرع لعباده من الأحكام إلا ما كان متفقاً مع القوانين الطبيعية التي تحكم نظام الكون.

علمانية الإسلام إذن تعني ان عقيدة المسلم لا تقوده في تناقض مع قوانين الطبيعة وسنن الحياة بل هي تتطور لتتوافق مع هذه القوانين والسنن.

وفي القرآن الكريم أكثر من دليل على وجود هذه القوانين الطبيعية لأزلية التي توجد وتؤثر بمعزل عن إرادة الأفراد. وكما يقال عنها في الأدبيات الاشتراكية «القوانين الموضوعية التي تحكم سير وتطور المجتمعات».

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة ..

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا).

وقوله تعالى:

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا).

وغير ذلك كثير من الآيات التي تدل على اعتبار القرآن الكريم للسنن التاريخية والطبيعية ونفاذ أحكامها على حياة الأفراد والجماعات في الماضي والحاضر والمستقبل..

ثم ان القرآن الكريم قد أشار في كثير من آياته إلى ربط العلل بالمعلولات والنتائج بالأسباب.

ولنتأمل هذه الآية الكريمة: (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

أي ان التغير لا يأتي جزافا .. ولا يغير سبب لكنه ينبع من علة أساسية هي إرادة التغيير الكامنة في الناس وعملهم الإنساني من أجل هذا التغيير وكذلك قوله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فارادة التغير لدى الإنسان هذا تتناسب مع خلق اله للتغير طردا وعكسا.

وهكذا يتضح لنا ان الإسلام يتخذ موقفاً علمياً خالصاً، فهو يؤمن بالعلم وبالقوانين الطبيعية التي تحكم سلوك الأفراد والمجتمعات. وهو يؤمن ان التغيير مرتبط بأسبابه الموضوعية والمنطقية التي يترتب عليها ..

ولنتأمل قول فقيه إسلامي آخر هو جمال الدين الأفغاني وموقفه من العلوم الطبيعية، بل وموقفه من نظرية داروين وهي التي أثاوت ولازالت تثير كثيراً من الجدل حول موقف الدين منها.

سئل الأفغاني عن قول المعري:

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

وهل يقصد به ما عاناه داروين بنظرية النشوء والارتقاء فقال:

«لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت: ليس على سطح الأرض شيء جديد بالجوهر والأصول .. أما مقصد أبي العلاء

فظاهر واضح ليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء، مهتديا بما قاله العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح، عرضا، في بحث الكيمياء: «ان التراث يستحيل نباتا، والنبات يستحيل حيوانا، وان ارفع المواليد هو الإنسان (الحيوان).

وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها .. وان أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات، وهو أدنى طبقات الحيوان،سلسلة تنتهي عند الإنسان. (جمال الدين الأفغاني. خاطرات جمال الدين).

هذا هو رأي واحد من أشهر فقهاء المسلمين في التاريخ الحديث حول موقف الإسلام من العلوم الطبيعية والاكتشافات العلمية وهو يوضح بما لا يدع مجالا للشك ان الدين الإسلامي يؤمن بالعلم وبتطوره وبمنجزاته.

بل ان الشيخ سعاد جلال يقول في مقاله الذي سبقت إشارتنا إليه وهو يناقش موقف الدين الإسلامي من النظريات العلمية .. «ان النظريات العلمية الثابتة ثبوتا قطعياً لا يمكن أن تتصادم مع نص قطعي في القرآن ذلك لأن القرآن الكريم قد اكتفى بايراد كليات عامة ولا يخوض في التفاصيل «ثم يمضي الشيخ سعاد جلال مؤكدا أنه إذا حدث تصادم بين نظرية علمية وبين نص قابل للتأويل فان علينا أن نؤول النص بما ينفي أي تناقض مع العلم الحديث، ويضرب مثالاً لذلك نظرية كروية الأرض، فقد اثبت العلم صحتها ثبوتاً قاطعاً وهناك قوله تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطا) وقد أول علماء الإسلام هذا القول اكريم «على أن المراد به كون الأرض ممدودة ممهدة لمعيشة

الإنسان، وذلك لا ينافي أن تكـــون الأرض في واقـــع تكوينـــها كروية». (الكاتب. المقال الســـابق ص ٥٦).

من ذلك يتضح لنا كيف ان الإسلام ديـــن يؤمـــن بـــالعلم ويهيئ نفسه لكي يواكب كل تقـــدم علمـــي وكـــل اكتشـــاف حديـــث.

وفوق ذلك فهو يؤمن ـــ وهـــذا هـــو المـــهم ـــ بوجـــود قوانين طبيعيـــة وأزليـــة تحكـــم ســـير المجتمعـــات، وان إيمـــان الإنسان بعقيدته الإسلامية لا ينفي، بل يؤكـــد، ضـــرورة إيمانـــه بهذه القوانين وعمله وفق هداهـــا.

ويقول الدكتور عبد المنعـــم خـــلاف في كتابـــه (المادية الإسلامية وأبعادها) تحت عنوان «مادية علميـــة ربانيـــة» «مـــن أسلحتنا التي ينبغي أن نستعملها في المعركـــة الفكريـــة المعـــاصرة أن نبين اننا نعتنق نفس المذهب العلمـــي المـــادي الـــذي تقـــوم عليه الحضارة العلمية الحالية والذي تفتتن بـــه الماديـــة الإلحاديـــة الشرقية والغربية. لأن ذلك المذهـــب هـــو الدعامـــة الكـــبرى لديننا ولأنه أستاذ عقولنا وباب معرفـــة ربنـــا ودليلنـــا المـــادي الذي يسوقه القرآن أمامنا في بحثنا عـــن الله وأســـراره وصفاتـــه وعن علاقتنا نحو البشرية وبـــالكون المـــادي». (ص٥٥).

وهذا الموقف بالغ الأهمية لأنه يحكم موقـــف المســـلم مـــن تلك القوانين الطبيعية التي ظلت تعمـــل طويـــلاً وتحكـــم ســـير المجتمعات حتى اكتشفتها نظرية الاشـــتراكية العلميـــة ودعـــت الناس إلى تفهمها والسير على هداهـــا.

ولعل خير كلمة توضح موقف الشـــريعة الإســـلامية مـــن العلم والعقل هي قـــول الإمـــام الشـــاطبي «الشـــريعة لا تنـــافي قضايا العقـــول.

من كل ما سبق يتضح لنا ان الإسلام فكر ثوري متجدد يصلح لكل زمان ومكان .. يتفاعل مع الاكتشافات العلمية الطبيعية والاجتماعية ولا يضع نفسه في تناقض مع حقائق العلم ولا مع واقع الحياة ..

ويتضح لنا أيضاً أن الفكر الاشتراكي العلمي قد استطاع أن يكشف وأن يصوغ مجموعة من القوانين العامة والطبيعية التي تحكم سير المجتمعات وتطورها ..

ولقد رأينا كيف أن ديننا يؤكد وجود مثل هذه القوانين وضرورة فهم الإنسان لها وعمله بمقتضاها.

***

من هذه النقطة سنبدأ في مناقشة قضية هامة هي مسألة الحكم بالقرآن .. تأكيداً لقوله تعالى، (ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الكافرون ..) وقوله تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان).

ويقدم الفقيه إسلامي ابن القيم تفسيراً لهذه الآية الكريمة، يقول: «الميزان هو العدل الفطري الموجود في نفوس البشر».

ويقول ان على الفقيه «أن يعرف الواجب (أي حكم الشرع) والواقع واستناداً إلى ما سبق ان ذكرنا من أن الإسلام قد أتى بكليات عامة لكل شئون الحياة، فان التفاصيل متروكة للإنسان يتلمسها من مصادرها المختلفة ويرجع فيها إلى العقل والتجريب .. والعلوم والمكتشفات الحديثة وكل ما أنتجه العقل الإنساني والنظم العصرية

الحديثة من منجزات سواء في مجال الصناعة والزراعة أو التأمينات أو الإدارة أو الحروب أو البناء .. الخ.

والتماسنا لهذه المنجزات والعلوم لا يعني اننا لا نستلهم الكليات من كتاب الدعوة الأصلي مع السنة الشريفة.

واضعين في الاعتبار ان هناك كما قلنا ــ أكثر من تفسير وأكثر من منهج لفهم هذه الكليات .. ونحن نختار التفسير الثوري الذي وضعت أسسه التجربة الإسلامية الأولى على يد الرسول الكريم .. ونحن بذلك لا نتخذ جانب الجوهر الصحيح للإسلام فحسب بل أننا نقف ــ وهذا طبيعي ومنطقي ــ إلى جانب الغالبية الساحقة من جماهير المسلمين في صراعها العنيف من أجل حياة أفضل.

وأود أن أقرر أن هذا هو الموقف الإسلامي الصحيح، وهو أيضاً، وفي نفس الوقت، الموقف الاشتراكي الصحيح.

فالموقف الاشتراكي في الأساس هو موقف سياسي في المقام الأول، يحدد أين يقف الإنسان في الصراع الطبقي المحلي أو العالمي .. وإلى أي جانب ينحاز ..فإذا وقف بجانب المضطهدين والكادحين في صراعهم ضد الاستغلال والاستبداد وإذا وقف إلى جانب الشعوب في صراعها ضد الاستعمار والاحتكار العالمي ومن أجل السلام والحرية لكل الشعوب فهو اشتراكي بصرف النظر عن موقفه الفلسفي وسواء اتفق مع بعض الاشتراكيين على موقفهم من الدين أم لم يتفق .. فإن هذه الفكرة التي هي فكرة سياسية بالدرجة الأولى ولا يمثل التزاما على هؤلاء الذين يدافعون عن هذه الفكرة.

واننا نرى ان الإيمان بالاشتراكية النابع من الإيمان الصحيح لتعاليم الدين الإسلامي هو شكل راق من أشكال هذا الإيمان .. لأنه إيمان يستند إلى القيم الروحية والتراث الفكري لمجتمعنا ويمكن داعيته من كسب الملايين من جماهير المسلمين الذين يتطلعون إلى غد مشرق تسوده العدالة والحرية.

وفي عصرنا الراهن حيث تحاول كثير من الأفكار المنحلة واللاأخلاقية التي أنبتتها فوضى النظام الرأسمالي وتحلله ان تغزو مجتمعنا .. فان التمسك بالأخلاق والقيم الإنسانية يعتبر سلاحاً رئيسياً في معركتنا.

والحقيقة أن الدين والاشتراكية يلتقيان معاً حول هذه النقطة أيضاً فكل منهما يتمسك بالخلق والقيم الإنسانية القويمة ويرفض التحلل ويدعو الإنسان إلى أن يحترم ذاته ويتمسك بالخلق القويم.

***

وليس غريباً أن يكون الغرب الرأسمالي الاستعماري هو المصدر الوحيد لكل هذه الموجة من الاستهتار بالأخلاق والقيم، وسواء تمثلت في بعض أفلام للجنس أو فن مبتذل أو ملابس غير أخلاقية .. فالحقيقة أن هذه الموجة ليست صدفة بحتة بل هي عمل مخطط من قبل الاحتكاريين الذين يريدون إلهاء الشعوب وشغلها بالجنس والاستهتار عن الصراع الطبقي والنضال من أجل مستقبل أفضل وإلغاء الاستغلال. وهو أيضاً تعبير عن القيم الزائفة المستقرة في المجتمع الرأسمالي.

والحقيقة ان الأخلاق سلاح هـام يجب أن يتسلح بـه كل إنسان مسئول وكل شخص في مجتمعنـا، فـالوازع الديني الذي يمثل علاقة مباشرة بين الـرب والعبـد، والـذي يشـكل رقابة دائمة وصارمة ومستمرة ومباشـرة علـى الإنسـان هـو سلاح فعـال في تقـويم الفـرد وحثـه علـى التقيـد بـالمثل والأخلاقيات والقيم النبيلـة.

وهو بالضرورة سلاح يحمـي أمـوال الدولـة وأعمالهـا، ويسهل تعبئة الجماهير المؤمنة في معركة البنـاء الاشـتراكي.

○

الإسلام حكومة دينية أم مدنية *

« ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر. وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنيف أعلاهم كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم ».

«الشيخ محمد عبده»

***

في كثير من الأحيان ـ وفي ظروف محددة ـ يعاد هذا السؤال طرح نفسه «هل يدعو الإسلام إلى سلطة دينية أم لا ؟».

وأنا أعتقد ان موقف الإسلام الجازم مع السلطة المدنية وضد الدعوة لقيام سلطة دينية، والأدلة على ذلك كثيرة

فالدين مصدره السماء، ومن ثم فإن أية حكومة تدعي لنفسها سلطة دينية إنما تعلن انها مفوضة من السماء وتلك هي نظرية «الحق الإلهي» التي سادت في المجتمعات القديمة

* نشرت بمجلة الجديد عدد أغسطس ١٩٧٢

والتي كانت تسودها روح الوثنية حيث كان الملوك والحكام أبناء للآلهة أو أنصاف آلهة ..

والإسلام يقوم في الأساس على تنزيه الخالق عز وجل عن مشابهة المخلوقات، كذلك يرفض الإسلام الكهانة والرهبانية بل ويرفض منصب «رجل الدين» وهذه كلها أمور في صف الحكومة المدنية.

وثمة مسألة أخرى هامة وهي ان الحاكم الإسلامي الوحيد الذي جميع إلى جانب السلطة المدنية «صفة دينية خاصة كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام».

وبعد وفاة الرسول (صلعم) لم يعد للخليفة «صفة دينية خاصة يتميز بها على سائر المسلمين، وانما صار المصدر الأساسي لتميزه هو المنصب المدني .. أي منصب الخليفة ..

والخليفة ـ في الإسلام ـ ليس خليفة لله تعالى في أرضه لكنه كان على عهد أبي بكر الصديق «خليفة لرسول الله» ثم على عهد عمر بن الخطاب» خليفة رسول الله، ثم «أمير المؤمنين».

وحتى هؤلاء الذين أجازوا تسمية الخليفة «خليفة الله» وهم أقلية ضئيلة، فقد أجازوا ذلك من منطلق يقول ان صاحب هذا المنصب انما تتمثل فيه سلطة الناس الذين هم خلفاء الله في الأرض .. أي أن مصدر السلطة المدنية للخليفة هو الشعب وليس الدين.

وابن خلدون يناقش هذه القضية بشكل واضح تماماً فيقول «واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته، فيقال خليفة باطلاق، وخليفة رسول الله واختلف في تسميته

خليفة الله، فاجازها بعضهم اقتباسا مـــن الخلافـــة العامـــة الـــتي للادميين في قوله تعالى (اني جـــاعل في الأرض خليفـــة) وقولـــه (جعلكم خلائف في الأرض) ومنـــع الجمـــهور منـــه لأن معـــنى الآية ليس عليه،وقد نهى أبو بكر عنــــه لمـــا دعـــى بـــه، قـــال: «لست خليفة الله، ولكني خليفـــة رســـول الله صلـــى الله عليـــه وسلم»، ولأن الاستخلاف انمـــا هـــو في حـــق الغـــائب وأمـــا الحاضر فـلا

● كذلك فاننا إذا مـــا اســـتعرضنا مواقـــف كـــل التيـــارات الفكرية والفرق الإسلامية لم نجد غير الشـــيعة الأمامية «الذيـــن يمكن أن يقترب فكرهم حول «الامامـــــة» مـــن نظريـــة الحـــق الالهي هم يرون ان إقامة «الإمـــام» واجـــب علـــى الله وليـــس واجبا على الناس، وان الله قـــد حـــدد أشـــخاص الأئمـــة، وان الرسول أوصى بذلك في «علي» وبيته وانـــــه لا دخـــل للنـــاس في ذلك وان الإمام «معصـــوم» وحجـــة لله ومصـــدر للديـــن»، «ونـــائب عـــن الله» وإذا علمنـــا ان كـــل الفـــرق الإســـلامية الأخرى تنكر مبدأ الوصيـــة هـــذا وترفضـــه أدركنـــا ان هـــذا الفكر غريب عن روح الإســـــلام.

● وثمة حجة أخرى لعلها تدحض هذه الفكـــرة مـــن أساســـها هي قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شـــيء) أي مـــا فرطنـــا في الكتاب من أمور الدين من شيء، ولو كـــان هـــذا المنصـــب منصباً دينياً، لكانت أصوله وقواعده وأســـاليب تقلـــده محـــددة في الشريعة الإســـلامية.

ولو كان الأمر كذلك ولو انه حـــدد بهـــذا الوضـــوح لمـــا اختلف المسلمون حوله عند أول اختيار، ولمـــا وقعـــت حادثـــة

«سقيفة بني ساعدة» عندما حاول المسلمون اختيار أول خليفة لرسول الله.

ولقد كان منهج وأسباب خلاف المسلمين الأوائل حول هذه القضية قاطع الدلالة على انها مسألة اجتهادية وليست من «أصول الدين» فقد ظهرت آنذاك نظريات عدة:

الأولى: تقول الأنصار أحق بهذا المنصب، وكان وراء هذه النظرية «سعد بن عبادة» كبير الخزرج ومن خلفه الأنصار.

والثانية: تقول ان المهاجرين أحق بهذا المنصب، وكان وراء هذه النظرية أبو بكر وعمر وغالبية المهاجرين.

والثالثة: تحاول أن تجد حلاً وسطاً، أمير من المهاجرين وأمير من الأنصار.

أما الرابعة: فترى أن علي بن أبي طالب هو الأحق بهذا الأمر وكان يساند هذا الرأي العباس عم الرسول وأبو سفيان وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر والزبير بين العوام. الخ.

والنظريات الأربع تدور كلها حول فكرة جوهرية هي مدنية السلطة المتنازع عليها، فإن أحداً لم يطلب الخلافة لنفسه أو لغيره على أي أساس يوحي بانها سلطة دينية.

كذلك فانه لو كانت «ولاية الأمر» ينظر إليها على أساس ديني لما ثار نزاع، أو لثار هذا النزاع على أسس دينية بحتة لكن الواضح تماما هو ان النزاع قد ثار على أسس مدنية بحتة أما حول «أهل الرسول وعشيرته» أو حول

مؤهلات مدنية أو بشرية ولو كان هذا المنصب دينيا لاستوى إزاءه كل من المهاجرين والأنصار.

كذلك فان هذا الخلاف بين المسلمين الأوائل هو دليل على أن قضية «السلطة» في الإسلام هي مسألة «مدنية» وانها بالقطع ليست مسألة دينية وإلا لخضعت في أصولها وتفاصيلها لتحديدات الشريعة القاطعة.

كذلك فان هذا الاختلاف بين المسلمين الأوائل لم يمنع اجتماعهم حول قاعدة كلية قررها الإسلام في هذا الصدد وهي طريق الشورى والبيعة أي الانتخاب من قبل أصحاب الشأن.

وهكذا فاننا لجد أن الإسلام حدد قاعدة كلية وشاملة هي مبدأ الشورى والقرآن الكريم يقول (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (آل عمران: ١٥٩).

ويقول تعالى في وصف المؤمنين: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: ٣٨).

ويقول الرسول «صلعم» لأبي بكر وعمر «وايم الله لو انكما تتفقان في واحد ما عصيتكما في مشورة أبدا».

وحول هذه القاعدة الكلية في اختيار الحاكم اختلف المسلمون في الرأي وفي التطبيق اختلافاً واضحاً .. وهذا الاختلاف هو في ذاته دليل على «مدنية» الأمر المختلف عليه فلو كان أمراً «دينياً» بحتا لما تسنى ولما جاز وقوع كل هذا الخلاف .. لأن أمور الدين ليس تحديدها من اختصاص كل الناس، وانما هي جزء من تعاليم السماء، وليست محلا للخلاف بين البشر.

***

ولقد رأينا حجم الخلاف ومداه في سقيفة بني ساعده عند اختيار خليفة رسول الله.

وعندما مرض أبو بكر عهد بالخلافة من بعده لعمر ـ بعد ان استشار المسلمين ولقد اختلف معه البعض وبذل أبو بكر جهوداً كبيرة لإقناعهم، وبات في إحدى الليالي مؤرقاً من عدم اتفاق المسلمين على بيعة عمر، وعندما نجح في إقناعهم عهد إليه بالخلافة .. وغني عن القول أنه لو كان هذا المنصب دينياً لكان الأمر خاصاً بأبي بكر وحده، دون استشارة لأحد وعلى أية حال فان الأسلوب الذي اتبعه أبو بكر يقدم لنا صورة ثانية تختلف عن صورة اجتماع سقيفة بني ساعده.

وثمة صورة ثالثة أو تطبيق ثالث لمبدأ الشورى وهي الصورة التي طبقها عمر إذ أنه قد حدد ست يختار منها الخليفة وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص.

وثمة حجة أخيرة لعلها بذاتها كافية، ذلك ان الإسلام الذي يقوم في الأساس على الشورى وعلى أسس الديمقراطية الصحيحة، ما كان له ان يضع في يد الحاكم سلطة «دينية» تعوق المحكومين عن مساءلته ومحاسبته وتقويمه ان اقتضى الأمر.

وهكذا فاننا نخلص من ذلك كله ان الإسلام وان تطلب من الحاكم والحكومة الإلتزام بمبادئه العامة وبتعاليمه، إلا انه لم يطلب لهم حكماً دينياً أو سلطة دينية.

محمد الإنسان *

ان الهدف الأساسي من هذه الدراسة هـو إلقاء الضوء على زاوية محددة هي محمـد الإنسان. والمناضل. والقائد، أسلوبه في الحياة، منهجه في التفكير، تصرفاته العملية .. وباختصار ان ننظر إلى محمد «صلعـم» في تصرفاته الإنسانية مع تلك الجماعة التي قادها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام سعياً لتحرير الإنسانية كلها.

ان تعاليم الدين الإسلامي صريحة بغير ما لبس في تأكيدها على ضرورة العدل الاجتماعي، بل ان الدعوة الإسلامية كانت في ذاتها منطلقا للعدل الاجتماعي بمن التف حولها من المستضعفين والعبيد والأرقاء والفقراء، وبمن تصدى لها وقاومها من الأغنياء وكبار التجار وأصحاب الأموال المستغلة في الربا والقوافل.

ولقد كان محمد «صلعم» راعي غنم فقيراً من الفرع الفقير الذي خاض صراعاً عاتياً ضد الفرع «الأموي» البالغ الثراء، بل لقد عمل محمد أجيراً في القوافل، ورأى كيف

---

* نشرت بمجلة «الإذاعة» عدد يوليو ١٩٧١

يكسب التجار، وكيف يخسرون الميزان ويغشون أثناء البيع ويسرقون الربح الذي حصلوا عليه بالغش.

وهكذا كل شيء يختلط ببعضه، السادة يقهرون العبيد والأجراء لا يثقون في السادة الذين لا يعطونهم إلا أضأل الأجور ويسرقون جهدهم ـ الأمانة عملة لا تعرفها هذه السوق والحق والعفة والرحمة بالناس كلمات تنقل همساً بين الفقراء والصالحين ويطغى عليها ضجيج السماسرة ورنين الذهب والفضة.

لقد رأى محمد (صلعم) بعينيه وبتجربته أناساً يكرهون فتياقم على البغاء، وفاء لدين ابتلعه الربا الفاحش، ورأى بعينيه ولمس بتجربته: العائلة تتحطم أمام الفقر ووفاء للدين، وبجانب ذلك الربا الفاحش والربح الكبير والغنى الذي لا حدود له.

لقد امتزجت تجربته الشخصية التي اكتسبها بتعاليم الإسلام التي أوحى له بها فجعلت منه ثائراً قائداً ذا قلب رحيم رقيق يتسع للخير ولحب الناس جميعاً، لقد دعا إلى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس أساليب جديدة وعلاقات جديدة وقيماً أخرى:

الإنسان سيد مصيره ـ ليس للإنسان ان يستشفع بأحد فالرجل وعمله، ولا يصح أن يتنازل عن عمله لأحد يدبر عنه أمره فلكل إنسان قلب يفقه به وعقل يتدبر به، يجب أن تصان نفس الإنسان، من الهوان، وان يصان بدنه من الأذى، لابد إذن من خلق مجتمع يسوده الإخاء مجتمع تحكمه الأمانة ورعاية حق كل الناس على السواء ـ ثورة تقيم العدالة وتحرر الإنسان من السيطرة والخوف والحاجة

إلى لقمة العيش تحرر القلوب والعقول، وتضع أساساً للتعامل بين الرجل والمرأة. بين الإنسان والإنسان.

لقد رفع صوته عالياً بحماس الرجل الذي خاض تجربة الفقراء والأجراء أمام السادة الأغنياء وكبار التجار.

ولقد كان صراع أغنياء مكة ضد محمد (صلعم) وضد تعاليمه صراعاً طبقياً في جانب كبير منه، وكانوا لا يكفون عن التهوين من شأن الدعوة الجديدة باعتبار أن كل من التف حولها وساندها من الفقراء..

وكان على الرسول أن يذكر اتباعه دوماً بأن الذين كفروا من قبل قد اتخذوا نفس الموقف، وان الفقراء هم دوماً أنصار كل رسالة حقة وعادلة.

كموقف قوم نوح عندما رفضوا الإيمان به لأن اتباعه فقراء (أنؤمن لك وأتبعك الأرذلون) الآية ١١١ من سورة الشعراء. وهي آية مكية).

(والارذلون) «هم الأقلون جاهاً ومالاً» (تفسير البيضاوي ص ٥٢١ طبعة القاهرة ١٩٢٦).

كذلك قول قوم نوح له أيضاً (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) الآية ٢٧ من سورة هود .. وهي مكية) «أي أخساؤنا لفقرهم» (تفسير البيضاوي ص ٣٢١).

وكان الوحي يؤكد دوماً للرسول (صلعم) واتباعه ان النصر الحق سيكون من نصيب الفقراء والمستضعين (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) «الآية ٥٥ من سورة القصص، وهي مكية»

وهكذا فان الدعوة قد حددت من البداية لنفسها مساراً نضالياً محدداً، فالتف حولها الفقراء .. وقاومها الأغنياء.

وكان الرسول (صلعم) يقف دوماً ليعلم المؤمنين قيماً جديدة وأخلاقيات جديدة، وفي ظل مجتمع كالمجتمع المكي، في عصر الجاهلية كانت العصبية والقبلية والعنصرية في أوج عنفوانها فقاومها محمد (صعلم) (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

وحتى هو نفسه رفض أن يوضع في موضع أسمى من غيره من المسلمين، فعندما حاول بعض الصحابة إطراءه صاح فيهم قائلاً: (لا تطروني !) فقالوا «لماذا لا نطريك وأنت سيدنا جميعاً ؟؟» فنهاهم عن ذلك، فان هو إلا بشر مثلهم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وعندما خرج محمد (صلعم) إلى غزوة بدر لم يستخلف على المدينة أحد وجهائها ولا أحد أغنيائها وإنما استخلف رجلين من بسطائها أحدهما يؤم الناس في الصلاة والآخر يقض بينهم. وأوصى الذي هو قاض بينهم ان يستفتي قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه.

وإذا كان محمد يدعو اتباعه إلى التعفف وإلى التقشف فقد كان يقدم لهم المثل والقدوة، ولم يطالب قومه بشيء لا يقبله هو، ولا يقدم عليه هو قبل غيره.

وقد حاول عبد الله بن أبي أن يدس على الرسول فراشاً وثيراً حملته إلى عائشة امرأة من الأنصار، ثم راح يروج يروج وسط المؤمنين ان رسولكم ينفق أموال الغنائم

على نفسه وعلى بيته، وأنـــه يتخـــذ لنفسـه فراشـاً كفـراش كسـوى.

وسمع محمد (صلعم) بالخبر فعـاد إلى بيتـه ليجـد عائشـة مسترخية على الفراش الجديـــد في فرحـة غـامرة فأمرهـا ان ترده إلى أصحابه، ثم استلقى على الحصير الخشن كمـا تعـود.

وأدل مثال على ذلـك أن النـبي (صلعـم) قـال (يـوم الوالي العادل أفضل من عبادة سبعين عامـاً).

وفي آخر خطاب لـه في النـاس .. وقـف يعلـم قومـه النزوع إلى الحق والعدل وأنه ما مـن إنسـان .. حـتى رسـول الله يسمو أو يعلو فوق الحق والعـدل ..

«أيها الناس من كنت جلدت لـه ظـهراً فـهذا ظـهري فليستقدمنه ومن كنـت شـتمت لـه عرضـاً فـهذا عـرض فليستقدم منه ومن أخذت له مالا فـهذا مـالي فليـأخذ منـه، ولا يخشى الشحناء من قبل فالها ليست مـن شـأني».

وهكذا فان القيـم والأخلاقيـات الـتي غرسـها محمـد (صعلم) في رجاله والتي أوصاهم باتباعها وهي الـتي كـان لهـم فيها قدوة ومثلاً هي كلها قيم تحـض علـى المسـاواة والاخـاء والتمسك بالعدل والحـق.

ولكن محمد (صلعم) لم يقدم فقط نموذجـاً أخلاقيـاً وإنمـا قدم أيضاً نموذجاً مـن العلاقـات الاجتماعيـة القائمـة علـى أسس صريحة في نزوعها نحو العـدل الاجتمـاعي.

وأدل مثـال علـى ذلـك ان النـبي (صلعـم) طلب من جميع المـهاجرين والأنصـار أن يعملـوا في بنـاء مسجـد المدينـة.

فلما تحرج بعض الأغنياء من العمل بأيديهم لم يشأ محمد أن ينهرهم، وإنما قدم لهم المثل والقدوة، فالهمك هو في البناء وعند ذلك أقبلوا على العمل خجلين، ولكن متباطئين وحاول عمار بن ياسر أن يحث عثمان ابن عفان، وهو واحد من كبار أغنياء وسادات مكة وهو فوق ذلك زوج رقية بنت الرسول . ويثور عثمان «لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية . والله اني لاراني سأعرض هذه العصا على أنفك».

ويعنفه الرسول (صلعم) تعنيفاً شديداً فبأي حق يتعالى عثمان على عمار بن ياسر، ولا يملك عثمان إلا الاعتذار يقدمه لعمار .. والعدل الاجتماعي ليس مجرد تعامل أخوي وعلى قدم المساواة بين غني وفقير، ولكنه في الأساس تقاسم في الأموال .. وخير مثال على ذلك هو دعوة الرسول إلى (المؤاخاة) بين المهاجرين وبعضهم البعض عندما وصلوا إلى المدينة والكثير منهم معدمون، والبعض هرب تاركاً ما له وثرواته خلف ظهره فآخى الرسول بينهم على أساسين: الحق والمؤاساة.

والمؤاساة ــ هي الاشتراك والمساواة في الأموال والأرزاق (المؤاساة، يقال القوم أسوة في هذا الأمر أي حالهم فيه واحدة .. وكذلك المؤاساة).

والمؤاساة ــ هي المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق (لسان العرب جـ ١٨ ص٣٧).

ومن أمثلة المهاجرين الذين تمت بينهم هذه المؤاخاة (أبو بكر وعمر ــ عثمان وعبد الرحمن بين عوف ــ الزبير وعبد الله بن سعود ــ عبيدة بن الحارث وبلال ــ مصعب

بن عمير وسعد بن أبي وقـــاص) .. «راجـــع كتـــاب الـــدرر في اختصار المغازي والسير ـــ لابن عبد الـــبر ـــ تحقيـــق الدكتـــور شوقي ضيف ص ١٠٠ طبعة القـــاهرة ســـنة ١٩٦٦م».

ثم يطور الرسول فكرة المؤاخـــاة فيجعلـــها بعـــد خمســـة أشهر فقط من الهجرة مؤاخاة بين المـــهاجرين والأنصـــار.

وبعد أن كانت مؤاخاة علـــى الحـــق والمواســـاة أضيـــف إليهما أمر ثالث وهـــو المـــيراث أي أن الشـــركة والمســـاواة في الرزق والمال تعدت حياة الذين تـــآخو، وامتـــدت إلى مـــا بعـــد الممات بحيث صار يـــرث أحدهمـــا الآخـــر .. واســـتمر هـــذا النظام أربعة عشر شهراً أي حتى غزوة بـــدر الـــتي حدثـــت في الشهر التاسع عشر من الهجرة عندما نزل قولـــه تعـــالى (وألـــوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) عند ذلـــك صـــار التـــوارث بـــين ذوي الأرحام والقرابة الذين تأخوا من المـــهاجرين والأنصـــار.

وهناك نقطة هامة جداً وهـــي أن هـــذه الآيـــة لم تنســـخ المؤاخاة على الحق والمواســـاة في الأمـــوال، إنمـــا ألغـــت فقـــط التوارث بين المتـــآخين.

وهذه أيضاً تشير إلى تجربة النبي صلـــى الله عليـــه وســـلم ونظرته للأمور النابعة من وحي الله لـــه بـــالعدل بـــين النـــاس، والمنبعثة من إحساســـه بمشـــاعر الفقـــراء والمعدمـــين، ومـــدى اتسا ع هذه المشاعر، حتى أقام ذلـــك النظـــام في التـــآخي بـــين المهاجرين والأنصار مدة أربعة عشر شـــهراً إلى أن نـــزل قولـــه تعالى (وألوا الأرحـــام بعضـــهم أولى ببعـــض) وذلـــك بهـــدف وضع الحدود للنظام في المجتمع، واستمر نظـــام المؤاخـــاة حـــتى النصر على بنى النضير وما أســـفر عنـــه مـــن غنـــائم كثـــيرة، وكانت أول ثروة كبيرة يفئ الله بها علـــى المســـلمين.

فتوجه الرسول (صلعم) إلى الأنصار مثنياً على كرم ضيافتهم لإخوانهم المهاجرين ثم قال:

«ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت أموال بني النضير وأموالكم بينكم جميعاً وان شئتم امسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة «فأجاب الأنصار عن طيب خاطر وسماحة نادرة: «بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت».

وبعد غزوة بدر اختلف المسلمون في أمر توزيع الغنائم قال الذين حاربوا وغنموا انهم أصحاب الغنائم، وهم أحق بها فلتوزع بينهم وحدهم وقال الذين كلفوا بحراسة خيمة الرسول انهم كانوا يستطيعون هم أيضاً القتال والغنم، فلماذا يحرمون وأوشك القوم أن يقتتلوا فيما بينهم . فخرج الرسول إليهم قائلاً: »

«أنكم لأولى الناس بعضكم ببعض» ثم أمر أن توزع الغنائم بين الجميع على السواء.

وبعد انتصار الرسول (صلعم) على بني المصطلق وزع الغنائم بين الجميع على الفقراء المهاجرين حتى يستغنوا، وحتى يتشلهم من وهدة الفقر أو ليس هو القائل «كاد الفقر أن يكون كفرا»؟

وكان هدفه من ذلك أن يقلل الفوارق بين الأغنياء والفقراء، فتوزيع الغنائم على الجميع، رغم أنه يحمل معنى المساواة إلا أنه يحفظ للأغنياء غناهم ويبقى الفقراء على فقرهم ولهذا أخص الفقراء بالغنائم هذه المرة، معلماً أصحابه مبدأ جديد في العلاقات الاجتماعية.

(ما أفــاء الله علــى رســوله مــن أهــل القــرى فللــه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابــن الســبيل كــي لا يكون دولة بــين الأغنيــاء منكــم) (الآيــة ٧ مــن ســورة الحشــرة).

لكن الأمر لم يقتصر على توزيــع الــثروات وإنمــا أمتــد أيضاً ــ عند الحاجــة ــ إلى توزيــع الــزاد والمؤمــن ــ ففــي إحدى الغزوات نقص الزاد من المقاتلين، فــأمر الرســول بجمــع كل ما مع المقاتلين من طعام، ووضــع أمــام الجميــع، ليــأكل كل منه على قدر حاجته، ثم قسم الباقي بينــهم بالتســاوي.

. حدثنا أياس بن مسلمه عن أبيه قــال:

(خرجنا مع رسول الله صلى الله عليــه وســلم في غــزوة فأصابنا جهد حتى همنا أن ننحــو بعــض ظــهرنا (أي دوابنــا) فأمر نبي الله صلى الله عليه وسلم، فجمعنــا مزاودنــا (أي مــا نحمل فيه زادنا) فبسطنا نطعا (أي بساطا مــن الجلــد) فــاجتمع زاد القوم على النطع قــال .. فأكلنــا حــتى شــبعنا جميعــاً ثم حشونا جربنــا)..

(ورد بصحيح مسلم شــرح النــووي جــ ١٢ ص ٣٢ طبعة القــاهرة).

ثم لنتأمل موقفاً آخر للرسول (صلعــم) .. وهــو موقفــه من إجارة الأرض وكان الناس علــى عــهده يؤجــرون الأرض بالثلث والربع أو غــير ذلــك مــن غلتــها فــرأى الرســول إجحاف ذلك بالزرع فنهى عنــه طالبــاً مــن كــل إنســان أن يزرع أرضه بنفسه فان لم يستطيع فليتركها لمــن يزرعــها.

روى رافع بن خديج «كنا نحاقل الأرض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى فجائنا ذات يوم رجل من عمومتي فقال (نهانا رسول الله عن رما كان لنا نافعا .. نهانا أن نحاقل بالأرض فنكرها على الثلث والربع والطعام المسمى، وأمر رب الأرض أن يزرعها أو يزرعها وكره كراءها وما سوى ذلك). (مختصر صحيح مسلم ص ٧).

وعن جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «من كانت له أرض فليزرعها أو ليزرعها أخاه ولا يكرهه ..».

وهكذا فالاستغلال محرم، ومالك الأرض أما أن يزرعها بنفسه أو يدع غيره يزرعها لنفسه وفي الحديث الأول دليل على أن الرسول قد نهى عن كراه الأرض رغم أنه كان نافعاً لقلة الناس، وهم المالكون لها، لأنه كان ضاراً بالأغلبية وهم المستأجرون وهذا تأكيداً لنظرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مصلحة الأغلبية وجعلها في صدارة تشريعاته.

كذلك فانه من المأثور عن رسول الله أنه قد حمى أخصب الأرض قرب المدينة (أي حرم تملكها ملكاً خاصا وجعلها لعامة المسلمين).

وقد روى البخاري عن ابن عباس «بلغنا أن النبي حمى النقيع .. (والنقيع هو الأرض الكثيرة الماء) وبه سمي الموضع الذي حماه النبي (أي جعله ملكاً للعامة) وهو على عشرين فرسخاً من المدينة .. وهو أخصب واد هناك، وفيه شجر غزير يغيب فيه الراكب .. (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن

الحجاز ـــ رفاعة الطـــهطاوي صفحـــة ٤٩٢ طبعـــة القـــاهرة سنة ١٢٩١ هــــ).

وقد روى أحمـــد أبـــو داوود عـــن الرسـول انـــه قـــال «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكـــلاء والنـــار».

وهو بغير شك موقف حاسم يؤيد الملكيـــة العامـــة لأهـــم مصادر الثروة في المجتمع في ذلك الحـــين.

ويروى عن الرسول حديث يؤكد فيـــه دعوتـــه للاهتمـــام بمصالح المجموع وعامة النـــاس .. فعـــن أبي موســـى رضـــى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وســـلم يقـــول «لـــن تؤمنـــوا حتى تراحمـــوا».

قالوا «يا رسول الله، كلنـــا رحيـــم» قـــال «انـــه ليـــس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامـــة» رواه الطـــبراني.

وكم أدان الرسول الغنى الفاحش باعتبـــاره ســـبب الفقـــر الفاحش، ولقد كان الرسول يعلـــق فقـــر الفقـــراء مســـئولية في عنق الأغنيـــاء.

ويروي الإمام علي عـــن رســـول الله قولـــه«ان الله علـــى أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذيـــن يســـع فقراءهـــم، ومـــا يجهد الفقراء إذا جاعوا وعـــروا إلا بمـــا يصنـــع أغنيـــاؤهم، ألا وأن الله يحاسبهم حساباً شديداً ومعذبهم عذابـــاً أليمـــاً».

ولقد نعى الرسول الكريم علـــى الأغنيـــاء كـــثرة غنـــاهم وتجاهلهم لفقر إخوانهم .. ولقد مال يومـــاً إلى الكعبـــة فجلـــس في ظلها ولاحظ مظاهر الغـــنى تبـــدو علـــى البعـــض ومظـــاهر الفقر تكسو الكثيرين، فظل يردد في أســـى «والذيـــن يكـــنزون الذهب والفضة ولا ينفقونـــه في ســـبيل الله فبشـــرهم بعـــذاب

أليم» واقترب منه أبو ذر الغفاري وهو يردد هذه الآية فمال عليه الرسول قائلاً «هم الخاسرون ورب الكعبة» فسأله أبو ذر من هم يا رسول الله ؟ «الأكثرون أموالا !».

ولقد كان الرسول يؤكد دوما أن المسلم الحق لا يحوز ما زاد حاجته، ويأمر بأن يرد هذا الزائد عن الحاجة إلى (المحتاج) باعتباره حقاً له.

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال «بينما نحن في سفر مع النبي» صلعم إذ جاء رجل على راحلة له .. قال: فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله (صلعم) من كان معه زاد فليعد به على من لا زاد له .. قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لأحد منا في فضل.. (صحيح مسلم بشرح الغوري ج ١٢ ص ٢٣).

ومعنى الحديث الشريف واضح لا لبس فيه، فمن كان معه مال زائد فليعطه لمن لا مال له، لكن العديد من أغنياء المسلمين استكثروا أن يضعوا دعوة الرسول بتقسيم المال الزائد موضع التطبيق، وحاولوا جاهدين أن يتناسوا هذه التعاليم الإنسانية الرشيدة وألا يجعلوها ترى النور.

وثمة رواية توضح الموقف من بعض أغنياء المسلمين، وهي رواية تحفزنا إلى أن نتقصى تعاليم رسولنا الكريم مدركين ان بعض أغنياء المسلمين قد حاولوا نسيان تعاليمه المنادية بالمساواة بين البشر وتعاليمه التي تحض على العدل الاجتماعي والتي ترفض الاحتكار والاستغلال.

والرواية عن الإمام مسلم في صحيحه ج١١ص٤٢ قال (حدثنا عبد الله بن قعنب حديثا سليماً «يعني ابن بلال

عن يحيى وهو ابن سعيد) قال كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمرا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من احتكر فهو خاطئ .. فقيل لسعيد: «فإنك تحتكر، فقال سعيد. ان معمرا الذي كان يحدث في هذا الحديث كان يحتكر !.

وإذا كان العمل هو المصدر الرئيسي للقيمة، وإذا كان العمل هو الأساس للتقدم، وهو أساس كل الأنظمة التي تسعى للعدل والمساواة ــ فلدينا العديد من الأحاديث الشريفة التي تمجد العمل وتراه العامل الذي يعطي الشيء قيمته. فالرسول (صلعم) يقول «لان يحتطب أحدكم ــ وفي رواية أخرى ــ لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيتحطب ــ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

ويقول عنيد العامل «هذه يد يحبها الله ورسوله».

ويقول « لا يؤجر أحد إلا بكد يمينه» وهو هنا يحدد ان العمل هو المصدر الوحيد الذي يستحق به الإنسان الأجر.

ويقول «أطيب الكسب عمل الرجل بيده» (رواه أحمد والحاكم).

***

وهذه الأمثلة، وهي بالغة الدلالة، كافية بذاتها لتقدم لنا الصورة الحقيقية لمحمد كمناضل يدعو لتحرير الإنسان. وليسمو بالإنسان فوق المطامع والأحقاد، رافضاً أن يستباح جلد الإنسان أو عرقه للمستغلين.

لقد وضع محمد الأساس المتين لفكرة العدل الاجتماعي مؤكداً ان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان أمر لا تقبله الشريعة ولا تقره، مؤكدا ان الإسلام دين يأبى إلا أن يعطى كل ذي حق حقه، وحق الإنسان أن يعيش حرا من كل قيد. حقه في أن يحفظ عرقه لنفسه وألا يقدمه لقمة سائغة في فم المستغل، حقه في أن يرفض الظلم وأن يقاومه، وأن يقيم العدل ويذود به.

لقد ترك محمد (صلعم) للمسلمين من القدوة والمثل اللذين قدمهما في حياته، والتعاليم التي أوحى الله إليه بها ما إذا تمسك به المسلمون حقيقة صاروا ثوارا في طليعة المضطهدين والمستغلين مدافعين عن قضيتهم.

فتعاليم محمد (صلعم) تقف إلى جانب المساواة بين البشر إلى جانب الحق والعدل، مع الشوار ورفض الاستبداد بالرأي أو بالحكم.

ضد تركيز الثروة والاحتكار، وضد استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. ان المجتمع الذي بشر به محمد (صلعم) هو مجتمع متكافل متضامن يسوده الاخاء، يمجد العمل، ويعتبره مصدراً لكل قيمة، ويفرض على الحاكم أن يتدخل دفاعاً عن مصلحة العامة وحقوقهم.

ولعلنا بمثل هذا الفهم لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ننصف أنفسنا ونقيها كثيراً من الحيرة وكثيراً من الشطط.

○

الدين ـ الاشتراكية ـ الماركسية *

بينما العدو يحتل أرضنا، ومتاعب التسليح والتعمير تحتاج إلى كل طاقتنا، وتحدى اللحاق بالعصر يواجهننا.. عادت ترتفع مرة أخرى، ومن أكثر من مكان، صيحة: الذئب ! الذئب !!

عاد التخويف من غول اسمه الإلحاد، أطلقته على الدنيا أمه الغوله .. التي هي في رأي البعض (الماركسية) وفي رأي البعض الآخر (الاشتراكية).

فما هي الحكاية بالضبط ؟

والحقيقة انني ترددت قبل الكتابة حول هذا الموضوع عن الماركسية والإلحاد. وكنت أتصور ان هناك موضوعات أخرى أكثر إلحاحا وأحق بالاهتمام. فبلادنا مثخنة بجراح الحروب، وهي تتطلع إلى بناء المستقبل بين تهديدات خارجية ووسط مصاعب اقتصادية.

وهذه المشاكل الواقعية هي التي تستحق تركيز الجهد والحوار والخلاف، كنت أتصور هذا، ولازلت. ولكن يبدو

* نشرت بمجلة «روز اليوسف» عدد ١ فبراير ١٩٧٥

ان البعض لجح في إقحام قضية الإلحاد والإيمان في جدل الأعمال، ويرى البعض ان مناقشة هذه القضية يأتي قبل أي مسألة أخرى، وبما أن هذا الرأي يعلن أن الإلحاد يساوي الماركسية، بل وهو يرى أن ـ التهديد لقيمنا الدينية لا يأتي إلا من الماركسية بالذات، وإذن فقد وجب توضيح الحقيقة. حتى لا تنشق جبهة المؤمنين الكادحين والمتطلعين إلى الاشتراكية باسم الخطر على قيمنا الدينية من الأفكار والمناهج التقدمية. ان الكثرة الغالبة من القوى الاشتراكية في بلدنا ـ وأنا منهم ـ ستنفر الماركسية، إذا كان جوهر الماركسية فعلاً هو الإلحاد وإذا كان الهدف الأساسي لنضال الماركسيين هو تسريب الإلحاد إلى المجتمعات المتدينة.

ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ وهل يتعارض إيمان الإنسان بالله وبرسله مع الاستفادة من اكتشافات علمية هامة في مجال التاريخ والاجتماع والاقتصاد ؟

إذا اقتنع الإنسان بصحة بعض الاكتشافات التي وصل إليها ماركس في هذه المجالات، فهل يتعارض إيمانه بالله مع استخدام هذه المكتشفات في تطوير مجتمعه إلى نظام يحقق الكفاءة في استخدام الموارد والعدالة في توزيع النواتج؟ ولمصلحة من يوضع الإنسان، أي إنسان، أمام هذا الاختيار الشاذ: أما أن تؤمن بالله ورسله ؟ وأما أن تؤمن بالعلم ؟! ولم لا نؤمن بالاثنين معا ؟. ان الدين يأمرنا بهذا، فهل يرفض العلم هذا الأمر ؟ وإذا كنت أعتبر الماركسية علماً فهل تلزمني الماركسية بترك الدين ؟!.

***

على أي حال .. ان إجابتي على هذه الأسئلة لن تبدأ بمناقشة موقف الماركسية والفكر الاشتراكي العلمي من التدين ولكنني سأبدأ من الواقع واقع الحياة التي نعيشها والواقع أغنى من أي نظرية.

الواقع يثبت أن هناك مئات الآلاف من المتدينين والمؤمنين انخرطوا في صفوف الأحزاب العمالية والشيوعية في العالم يناضلون من أجل نظام أفضل ينتهي فيه استغلال الإنسان وليقيموا سلطة العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين بدلاً من سلطة القوى المستغلة، ولم يطلب أحد من هؤلاء أن يتخلوا عن إيمانهم، وهم حينما انخرطوا في سلك هذه الأحزاب كان دافعهم إلى ذلك قيمهم الأخلاقية النابعة من تدينهم إيمانهم الحقيقي بالكفاح من أجل العدل وإنهاء الاستغلال على أرض أوطانهم وفي العالم كله.

وفي الاتحاد السوفييتي كان لينين يقبل القسس والمتدينين في الحزب الشيوعي، وفي أوروبا الشرقية الاشتراكية في بولندا والمجر هناك متدينون أعضاء في الأحزاب العمالية والشيوعية الحاكمة. وفي إيطاليا يصوت ملايين من المؤمنين الكاثوليك للحزب الشيوعي في الانتخابات ومن بينهم مئات الآلاف من أعضاء الحزب.

وفي أمريكا اللاتينية يشترك في قيادة الحركة الثورية ـ بما فيها من الأحزاب الماركسية والشيوعية ـ عدد من رجال الدين الكاثوليكي، والقس الشهير «كاميلو توريز» هو نموذج رفيع لبطولة هذا الفريق من رجال الكنيسة الذين خاضوا الكفاح الثوري مسلحين بعقيدتهم الدينية وبالفكر العلمي.

وقد نضيف هنا اله حدث في شيلي ــ قبل الانقلاب العسكري ــ ان انفصل الجناح اليساري للحزب الديمقراطي المسيحي وأنشأ حزباً مستقلاً يسترشد بالفكر الماركسي اللينيني ويتحالف مع كتلة الجبهة الشعبية.

وفي بريطانيا ظل دكتور هيولت جونسون اسقف كانتربوري طوال السنوات الماضية يعلن إيمانه بالمسيحية ويدافع عن أفكار ماركس الاشتراكية العلمية حتى سموه بالأسقف الأحمر وقد ألف كتاباً عن الاتحاد السوفييتي اسمه «السدس الاشتراكي للعالم» كتبه في الأربعينيات وقال بعد زيارته للاتحاد السوفييتي «انه في الاتحاد السوفييتي تمارس المسيحية ستة أيام في الأسبوع واجازة يوماً واحداً أما في بريطانيا فتمارس المسيحية يوماً واحداً هو الأحد وتبقى عاطلة بقية الأسبوع !. وكما قال بحق السيد كيرت بخمان رئيس الحزب الشيوعي في ألمانيا الغربية بمدينة شتوتجارت في ١٨ يوليو ١٩٦٩ في مؤتمر الكنيسة البروتستنتية «ان كثيراً من المسيحيين، كاثوليك وبروتستانت، قد قاوموا الدكتاتورية والنازية وعارضوا الحرب العالمية الثانية بوازع من إيمانهم ومعتقداتهم، وبالمثل فمنذ تأسيس الجمهورية الاتحادية شارك المسيحيون في تطوير التقدم الاجتماعي. النا لا نستطيع ان نواصل الحديث عنهم بوصفهم مسيحيين فحسب، فالمعتقدات الدينية بالنسبة لكثير من الناس في الجمهورية الاتحادية لم تعد عقبة بل أصبحت حافزا لمساهمتهم في النضال من أجل السلام والتقدم الاجتماعي ولهذا فنحن الشيوعيين نفرق بين المسيحيين وتلك الجماعات

الكنائسية التي تستغل العقيدة المسيحية لمصلحة القوة الرجعية الحاكمة وتحاول ان تضع الكنيسة في خدمة الرجعية.

وقد سبق ذلك عدة تطورات في الفكر المسيحي في أواسط الخمسينيات مثل كتاب كليمس بروكموار اليسوعي «المسيحية في فجر العصر الذري» والذي قال فيه انه ليس للكنيسة أية علاقة بأي نظام اجتماعي، وانما يمكن أن تستمر أيضاً في الاشتراكية. وكان بروكموار يرى ان على الكنيسة ان تضع في تقديرها احتمال أن يكون المستقبل اشتراكيا، على الرغم من إضافته بأن كارل ماركس أيضاً في حاجة إلى أن يحول إلى المسيحية كما حدث مع أرسطو ثم جاء مجلس الفاتيكان الثاني لينفصل بحذر عن عداء البابا بيوس الثاني عشر للشيوعية. وبتأثير التطورات في أمريكا اللاتينية، اتخذ موقفاً أكثر تقدمية تجاه القضايا الاجتماعية المختلفة مثل قضية الملكية. وفي نفس الوقت تقريباً سمح المنشور البابوي «باسم أت ثيريس» أولا للكاثوليك بالعمل المشترك مع الماركسيين في المجالات الاقتصادية والسياسية وأخيراً وضع المنشور البابوي «كليزيام سيام» قواعد الحوار بين الكاثوليك والماركسيين.

***

هذا عن موقف رجال الدين من المسيحيين، فماذا عن موقف رجال الدين المسلمين ؟ سنشير هنا إلى مجرد مثال من عالم ديني مرموق هو الشيخ رشيد رضا صاحب (المنار). والذي كتب يقول في المجلد الحادي والثلاثين لعام

١٩٣١ــ١٩٣٢ صفحة ٧١٩ من مجلة (المنار: «البلشفية هي مجرد مرادف للاشتراكية، والاشتراكية تعني تحرير العمال من نير الحكومات الرأسمالية والاستغلالية، وعلى المسلمين أن يؤملوا خيرا في انتصار البلشفية طالما انهم هم أيضاً كادحين يعانون من نفس النير، وإذا ما انتصرت الاشتراكية فان عذابات الإنسانية سوف يوضع لها حد، ان الشيوعية لا تتناقض مع الشريعة الإسلامية بينما تتناقض أفعال الحكومات الأوروبية مع شريعة الإسلام.

وفي وطننا العربي حيث لعب الدين طوال السنوات الماضية دوره الطبيعي في مقاومة الاحتلال والنهب الأجنبي وألهم فقراء الناس في كفاحهم من أجل الحق والعدل وتصفية الاستعباد والاستغلال، قام نفر من المسلمين ووجدوا في منابع الثورة الإسلامية الأولى ومبادئها الكلية والعامة، كما جاءت على يد الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حافزا لهم على تفهم القوانين العلمية العصرية للمجتمعات، وعلى أن يتبنوا اتجاه الاشتراكية العملية ــ والحقيقة أنه يوجد في بلادنا العربية ــ وهذه حقيقة ــ الناس قد أعلنوا إيمانهم بالله سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، ولكنهم يسلكون في أنظمتهم السياسية والاقتصادية وكفاحهم الاجتماعي المنهج الماركسي، ولا شك أنهم متدينون فهم أعلنوا إيمانهم بالله وكتبه ورسله ولهم أفكارهم ونضالهم من أجل نظم سياسية واقتصادية معينة يجب أن نقول لهؤلاء أهلاً بكم وبنضالكم من أجل مجتمع التكافل والعدالة الذي بشر به الإسلام.

ان النظر إلى محاولات الجمع بين الأخذ بمنهج الاشتراكية العلمية مع الالتزام بالجوهر النقي للإسلام، ان النظر إلى هذا الأمر على اعتبار انه محاولة تكتيكية لغزو المجتمعات المؤمنة هو من قبيل قولنا لمن يلقي إلينا السلام: لست مؤمنا. وهو ما يعلم كل عارف لدينه منافاته لموقف القرآن. فالأمر ليس «تكتيكا للغزو» ولا هو تلفيق أو خداع .. ذلك ان التفسير المستنير للدين، وإبراز الطاقات الخلاقة والمبدعة للإيمان في دفع عجلة التطور إلى الأمام قد جعلت عدداً من القادة الماركسيين والشيوعيين وأيضاً من غيرهم يبصرون الأرض المشتركة التي يقف عليها الإنسان المتدين والمستظل برأيه الاشتراكية العلمية. وها هو بالميروتولياتي، السكرتير العام السابق للحزب الشيوعي الإيطالي، يتحدث عن موقف الماركسية من الدين والتدين، فلا يراه مجرد «تحالف» بين المتدينين وبين غير المتدينين في النضال اليومي ضد العدو المشترك، بل يضع القضية في مستوى أعلى عندما يقول: «انه إذا كان المقصود بالدين أن يؤمن الإنسان بوجود قوة تحضه على عمل الخير وتمنعه عن عمل الشر، فلا اعتراض لنا على ذلك، بل اننا نرحب به».

فإذا كانت الماركسية ترحب بالتدين في أوروبا، حيث رسخت للتدين تفسيرات مناهضة للعلم والتقدم الاجتماعي، فكم هي واسعة وعميقة أرض اللقاء والنضال المشترك على أرض المجتمعات الإسلامية حيث يمثل تراث الإسلام، إذا فهم باستنارة وإخلاص، طاقة تدفع التقدم بغير حدود ؟.

اننا إذا شئنا موقفا عربياً مسلماً يعبر عن الإمكانيات الفنية لذلك اللقاء فسنجده في تجربة الثورة العربية المسلمة التقدمية في الجزائر عندما عبر عنها أحد قادتها فقال: ان الجزائر ستبنى مستقبلها وفي يدها اليمنى: القرآن، وفي يدها اليسرى كتاب (رأس المال).

ولعل هذا الوضع المتميز لتراث الإسلام الفكري هو الذي جعل فيلسوفا ماركسياً مثل روجيه جارودي يقول: ان ماركس لو امتدت به الحياة فاستكمل مشروعه في دراسة الإسلام لكانت هناك إضافة جديدة للماركسية مثل تلك الإضافات التي جاءت من مصادرها الثلاثة المعروفة. الاقتصادي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية، والفلسفة الألمانية. ويرى جارودى ان إنجاز المهمة التي لم ينجزها ماركس ستجعل المسلم يهين الاشتراكية العلمية بتراث الإسلام الفلسفي والاجتماعي. وبالفعل هذا هو دور الماركسيين المرتبطين بتراث هذه المنطقة.

فنحن إذن أمام مهمة كبرى للتوفيق بين تراثنا الحضاري وبين أكثر المناهج رقيا في الثورة الاجتماعية، وهي مهمة لا تدفعنا إليها الرغبة المجردة في التوفيق، بل نراها الموقف الوحيد المتسق مع الطابع العقلاني والتقدمي لتراث الإسلام.

ثم اننا لا يشغلنا أن كثيراً من الاشتراكيين الماركسيين وغير الماركسيين في أوروبا قد ألحدوا، فهذه قضية تخصهم، وهي ظاهرة أوروبية صرفة، ولا نلزم أي اشتراكي ماركسي أو غير ماركسي بهذه الأفكار في أي مكان. إذ أن ظاهرة الإلحاد لها تاريخها الخاص في أوروبا، وهي منتشرة في العالم

الرأسمالي بصورة كبيرة، مما يجعلها ظاهرة خاصة لهذه الحضارة الأوروبية، ولا تتعلق بمنهج اجتماعي معين.

والقيمة الأساسية للفكر الاشتراكي العلمي انه اكتشف القوانين الموضوعية لتطور المجتمعات وصاغها صياغة ملائمة وعلمية، وهذه القوانين ليست ملكاً لأحد بل تراث إنساني عام يتعين على كل مخلص لقضية التقدم الإنساني ان يستفيد منها ويسترشد بها في نضاله، واننا ونحن نخوض معركة البناء الاشتراكي في بلادنا، يتعين علينا أن نستخدم هذه القوانين العامة لتطور المجتمعات كمنهج يهدينا في العمل الثوري، لكننا نستخدم هذه القوانين بعد أن نضيف إليها بعداً قومياً وروحياً يتمشى مع تراثنا القومي والديني مما يمكن لهذه

***

لقد بدأت الاشتراكية العلمية بكتابات ماركس وانجلز ولينين، ولكنها لا يمكن أن تتوقف عند ذلك، فقد ازدادت غنى وثروة بالفكر الإنساني والتجارب الإنسانية التي أضيفت إليها من الخبرات النظرية والعلمية للأحزاب الاشتراكية والعمالية من ذلك التاريخ حتى اليوم مضافاً إليها خبرات حركة التحرر الوطني الكبيرة ضد الاستعمار في العالم الثالث ومن أجل التغير الاجتماعي، بل ويعتبر الميثاق الوطني المصري وبرنامج العمل الوطني أحد هذه المنجزات التي تضاف لتراث الاشتراكية العلمية كتجربة حركة تحرر وطني تضع برنامجاً للتغير الاجتماعي. ورواد الاشتراكية العلمية الأوائل يحثون على هذا الاتجاه فهم

يؤكدون أن أفكارهم «ليست عقيدة وإنما مرشد للعمل» ــ أفكارهم تؤكد على نسبية المعرفة وبالتالي لا يمكن أن تتحول أفكارهم إلى عقيدة ثابتة، وأفكارهم واكتشافاتهم لابد أن تتطور باستمرار مع الكشوف العلمية الجديدة، وعلى ضوء الخبرات والمعارف التي يكتسبها البشر في كل مكان. ومن هنا لا يصبح غريباً أن يعلن ماركسيون ف عالمنا العربي المهم يضيفون بعداً روحياً إلى البناء الاقتصادي والاجتماعي، والمهم يؤمنون ــ على ضوء تراثهم ــ بان القيم الروحية دافع لمزيد من التقدم داخل مجتمعاتنا.

ان القضية الأساسية ــ وينبغي ان نواجهها بصراحة ــ هي ان الاشتراكيين العلميين يعتقدون ان الاتجاه الطبيعي لتطور المجتمع هو ان يصبح مجتمعاً للجماهير العاملة ينتفي فيه الاستغلال. ومن المؤكد ان الطبقات المستغلة تعارض هذا التطور وتعترض طريقه، ونحن نعتقد ان الموقف الأول أقرب إلى جوهر الدين وروحه، ولكن ليس من حقنا بالقطع ان ننفي عن الآخرين إيمانهم ومن باب أولى اعتقد أنه ليس من حق هؤلاء الآخرين تكفير الاشتراكيين، ماركسيين وغير ماركسيين الذين يعلنون انهم يؤمنون بالله ورسله. لنواجه القضية الأساسية على حقيقتها فهو خلاف اقتصادي وسياسي بين مصالح الطبقات الكادحة ومصالح الطبقات المستغلة، وإذا كانت هناك معارضة للاشتراكية فلنقلها صريحة، ولا داعي لإخفاء هذه الحقيقة تحت قناع معارضة خطر الإلحاد الوهمي.

ان الاشتراكيين الذين يؤمنون بهذه الأفكار لا يهدفون إلى غزو المجتمعات المتدينة التي ترفض الإلحاد بقدر ما يهدفون إلى مساعدة هذه المجتمعات المتدينة في أن تناضل من أجل حياة أفضل وإنهاء الاستغلال والفقر والتخلف، وانضمام جموع المتدينين إلى صفوف النضال الاشتراكي يدعم قوة الدين والتدين ولا ينقص منهما شيئاً ـ ويجب أن نسعد بازدياد عدد المؤمنين والمتدينين في صفوف الحركة الاشتراكية فهذه قوة للإيمان والتدين.

مرة أخرى مع الدين والاشتراكية والماركسية *

ليس إدعاء لسعة الصدر أن أعـــرب عـــن ترحيـــبي بمـــن علقوا على مقالي في روز اليوسف حـــول الديـــن والاشـــتراكية والماركسية. فالحقيقة انـــني ســـعدت فعـــلاً وأحسســـت اننـــا نتناقش في هذا الموضوع. ولأول مـــرة، داخـــل إطـــار صحيـــح وليس مشكلة بعد هذا أن نتفق في النقـــاش أو نختلـــف.

وحتى نتابع الحوار معاً يحسن أن أذكر بخلاصـــة مـــا قلـــت في مقالي السابق، فقد أوضحـــت ببيانـــات وحقـــائق ان ملايـــين عديدة من المتدينين تناضل تحـــت رايـــة الأحـــزاب الماركســـية والعمالية دون أن تستشعر أي نوع مـــن التنـــاقض بـــين هـــذا النضال الثوري وبـــين إيمانهـــا بـــالله وبـــالمعتقدات الدينيـــة. ان ماركسية ـــ ككثير مـــن المفكريـــن الأوروبيـــين ـــ لـــه آراء في الدين لا نوافق عليها، ونحن هنـــا مـــن نبـــت تـــراث يختلـــف، ولكن هذا لا ينفي ان ماركس قدم اكتشـــافات هامـــة للقوانـــين

* نشرت بمجلة «روز اليوسف» عدد ٢ مارس ١٩٧٥

تطور المجتمع وفي النظرية الاقتصادية وهذا هو الإنجاز الأساسي والجوهري الهام لكتاباته.

وإذا كانت هذه الكشوف تؤدي إلى تقدم البشر عبر أقصر الطرق، وتقضي على الاستغلال فإن واجب المسلمين أن يستخدموا هذه القوانين والنظريات العلمية، وإذا أعلن الإنسان المسلم عن اقتناعه بهذه القوانين والنظريات فإن هذا لا يعني انه يمتد باقتناعه إلى كل كلمة قالها ماركس في مجال الفلسفة. وبالتالي فمن الممكن أن يكون الإنسان مسلماً حتى النخاع، ثم مستخدما — في نفس الوقت — لقوانين ماركس في الاجتماع والاقتصاد، التي يعتقد أنها صحيحة علمياً. ولا داعي بالتالي لهذا الربط التعسفي بين الحديث عن الماركسية والاشتراكية العلمية وبين الحديث عن الإلحاد. وإذا صدقت النوايا فمفروض أن يسعد المسلم حين يسمع ماركسياً يؤكد له أنه أيضاً مسلم، ويهدف إلى رفعة المسلمين المظلومين، ولكني الحظ أن البعض يتميز غيظاً عند سماعه مثل هذا الحديث !

على أية حال أعود إلى الردود التي تلقتها روزاليوسف حول مقالي هذا. وإذا قلت أنها تناقشت داخل إطار صحيح فانني أشير مثلاً إلى قول — الأستاذ حسين محمد حسن (خلاصة الموضوع، من وجهة نظري، هي انه إذا كان المسلم يؤمن بالله ويطبق في سلوكه النظام الماركسي والفكر الاشتراكي الشيوعي، فانه لا يعلم حقيقة الإسلام). فالأستاذ حسين يختلف معي بشدة، ولكنه لم يحل لنفسه أن يرميني بالكفر نتيجة هذا الخلاف، فالأمر لا يعدو — من

وجهة نظره ــ انني لا أفهم حقيقة الإسلام، وكان من حقه، بل من واجبه أن يعينني على فهم ما التبس علي.

كذلك د. عبد العظيم هلال: لقد علق على القول الذي نقلته عن الشيخ رشيد رضا .. عندما أعلن هذا العالم الإسلامي الجليل ــ ومنذ الثلاثينيات ــ انه لا تعارض بين الإسلام والبلشفية، وقال د. هلال: «الحمد لله الذي يأبى لنا معشر المسلمين أن نكون ممن يبنون عقيدتهم على قول هذا أو ذاك مهما كان هذا أو ذاك عالماً دينياً مرموقاً» وبالفعل نحن نحمد الله على ان الإنسان يقف ــ في الإسلام ــ أمام ربه بلا وسيط، وبلا مؤسسات تحتكر حق تفسير ما يحل وما لا يحل، وحين استشهدت بقول الشيخ رشيد رضا لم أكن أقصد انه رأى ملزم لكل مسلم، ولكنه رأى أوردته لكي اثبت انني لا انفرد بقول لم يسبقني إليه آخرون، فقد سبقني إليه، ومنذ عشرات السنين، رجال قد يختلف مع اجتهاداتهم، ولكن لا يشك في صدق إيمانهم. والدكتور هلال ذكر اعتراضه على قول الشيخ رشيد رضا بهذه الروح على ما اعتقد. وهذا ما جعلني أقول أن النقاش حين يدور في هذا الإطار يكون نقاشا صحيا ومجديا، حتى وان بدا حادا.

انتقل الآن إلى جوهر الحجج التي قدمت ضدي. وقد راعني حقيقة انها بدأت بموقف غريب من العلم، فالأستاذ حسين يقول ان إيمان الشخص المسلم يتعارض مع استخدام الاكتشافات العلمية حتى لو اقتنع بصحتها: ولماذا هذا الرأي الغريب «لأن المسلم الواعي يؤمن بالنظرية التي تقول ان العلم متغير والدين ثابت» ولاشك فعلا أن العلم متغير

والدين ثابت ولكن هذا لا يعني ان نستغني عن العلم ونكتفي بالدين. ولكنه يعني ألا نخلط بين الاثنين، لكل مجاله وفي العلم بالتحديد ينبغي على المسلم ان يستخدم الاكتشافات العلمية التي يثبت صلاحها لأمته أيا كان صاحبها .. ولولا هذا لدرنا نحطم ما يحيط بنا من آلات.

أما د. هلال فانه يقول: ان كلمة علمية تعني «انها لا تؤمن إلا بالمحسوس من الظواهر. وبالتالي هي تكفر بكل ما هو غيبي». وهذا كلام ينبغي أن نقر أيضاً بأنه غير صحيح، وإلا كان من الواجب أن ننبذ تماماً أي تطلع إلى معرفة ما يحيط بنا. نعم أن العلم يتقدم بالملاحظة والتجربة. وبالاستقراء والاستنباط، وباستخدام هذه المسائل نكتشف القوانين والسنن التي تحرك العالم المادي الموضوعي وحين نكتشفها نسخرها لخدمتنا. ذلك أن تطور المجتمعات البشرية جميعها ـ بصرف النظر عن أديان ومعتقدات أهلها ـ تحكمها قوانين علمية أيضاً، تدعو إلى الاستفادة منها والاعتبار بها، وهذه القوانين هي التي يسميها القرآن الكريم «سنن الله في الكون». وهو يطلب من المسلمين ـ كما يقول الإمام محمد عبده ـ «النظر والاعتبار سنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر» ـ كل البشر ـ وذلك «ان الله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل .. وهي التي يعبر عنها قوم بالقوانين .. فنظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع ان ينظر إلى أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه، فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء وان ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر وفكر

وكشف وقرر، أنى لنا بأحكام تلك السنين فهو يجرى مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه .. (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ ج٣ ص٢٨٣، ٣٨٤).

فالنظر في سنن الكون وقوانين المجتمعات البشرية سيقودنا حتما إلى ما ترضى عنه طبيعة الدين. كما قرر الشيخ محمد عبده ومن ثم فلا مجال لقول من يقول: ان النظر في هذه السنن سيفضى بنا إلى الكفر بما هو غيبي .. ومفروض ان الإنسان المؤمن يزداد إيماناً بالله كلما اقترب أكثر من فهم قوانينه.

قد يقال أن الكاتبين لم يقصدا العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التكنولوجية في مجالات الإنتاج، وإنما يقصدان أمور المجتمع الإنساني، ولكن الأستاذ حسين يقول: ان «الإسلام فيه الاقتصاد والاجتماع والسياسة والإدارة ـ والتربية وغيرها، وهو قانون إلهي صادر من كامل لا نقص يه، وهو الباري عز وجل».

انني أعتقد أن هذه المقولة بالذات هي سبب كل الخلاف يكفي أن نعود إلى كلمة الكاتب نفسه. الدين ثابت والعلم متغير .. وكافة هذه المجالات التي عددها علوم، وعلوم حديثة، وعلوم بطبيعتها متغيرة متطورة، فكيف ندمجها في الدين الثابت الذي لا يتغير ؟

ان الدين ثابت وملزم في شق العبادات وفي جانب تنظيم الحياة قدم الإسلام مبادئ أساسية. هي أيضاً ملزمة ولكنها عامة بالضرورة كي تصلح في كل زمان ومكان ولكل المجتمعات. ان هذه المبادئ هي المثل التي ينبغي

للمسلم ان يناضل من أجل تنفيذها، ولكن الشكل والأسلوب ترك للإنسان المسلم كي يتدبره ويتولاه، وفق مقتضيات العصر والحياة. لقد ترك للإنسان المسلم ان يضع العلوم الإنسانية، علوم الاقتصاد والسياسة والإدارة والاجتماع الخ. وهي علوم بالضرورة متغيرة ومتطورة. وفي البحث لتطوير هذه العلوم نحن مطالبون بمتابعة ما يحدث في أي مكان في العالم. ان الحديث عن ان ــ الإسلام قد حوى كل شيء يعني أن نغلق أذننا وعيننا عن كل ما يحدث خارج المجتمعات الإسلامية بل أنه يعني أن نكف عقولنا عن التفكير تماماً، إذ ما ضرورة التفكير مادام كل شيء جاهز تحت أيدينا ؟

ان هذا الكلام مرفوض، ليس باسم المنطق السليم فقط، ولكن أيضاً باسم ديننا وتراثنا وخبراتنا. والا فهل في الإسلام ــ ونحن نأخذه من القرآن والسنة ــ ما يمنع المسلم من أن يستفيد من تجارب الآخرين أو يفهم الإسلام فهما يتناسب مع عصره وبيئته ؟ لقد جاء في الأثر «أطلبوا العلم ولو في الصين» والصين المقصود بها هنا بعد المكان الذي يوجد به العلم والعالم، فإذا كان الحديث يأمرنا بالارتحال والسفر طلبا للعلم الذي قد يكون موجوداً عند غيرنا، فكيف نغلق عقولنا عن علم يأتي إلينا في هذا العصر الذي زالت فيه الحواجز وتقاربت المسافات ؟

ثم انا إذا بحثنا عن الإنجازات والتطبيقات التي نسميها اليوم «تراث الإسلام الفكري والحضاري» .. قادنا هذا البحث إلى المصادر الأصلية التي استلهم أسلافنا منها هذه الإنجازات والتطبيقات. ووجدنا ان غالبية هذه المصادر ثمار

لحضارات غير عربية وغير إســـلامية .. ونحـن لـن نفيـض في ضرب الأمثلة، فتلك قضية شـــهيرة، ولــن نختـار أمثلـة مـن العصور المتأخرة حتى لا يقال أن تصرفـــات أهلــها واقتباسـاتهم غير ملزمة لنا، وإنما سنشير إلى أمثلة حدثـت في عصـور صـدر الإسلام ودولـة الخلفـاء الراشـدين، الـتي تمثـل «السـابقة الدستورية» في منهاج التشريع لدى كـل المسـلمين.

فمثلاً .. عندما فكر عمر بن الخطــاب في وضــع تشـريع اقتصادي خاص بضريبة الأرض الزراعيــة لم يجـد حرجـا في أن يطبق نفـــس التشــريع الـذي كـان قـد وضعـه كسـرى أنوشروان. وظل هذا التشــريع يعـرف في تراثنـا الاقتصـادي باسم «وضائع كسرى» .. أي القـانون الـذي تواضـع عليـه الناس ـــ أي اتفقوا عليــه ـــ وفي دولـة كسـرى أنوشـروان. وكسرى هذا كان مجوسيا. ومع ذلــك لم يتحـرج عمـر بـن الخطاب. ولا المسلمون من صحابــة الرسـول عليـه الصـلاة والسلام، مـــن الاســتفادة مـن فكـر المجـوس الاقتصـادي والاجتماعي عندما رأوه أداة تفيدهم في تحقيــق العـدل الـذي يدعو إليه الإســلام.

وعندما تمت الفتوحـــات الكـبرى علـى عـهد عمـر، ونشأت أوضاع اجتماعية واقتصادية جديـــدة، كونـت واقعـاً اجتماعياً جديداً لم يكـن قائمـاً علـى عـهدي الرسـول وأبي بكر، وأدرك عمـــر ان هنـاك ضـرورات جديـدة تسـتدعي تنظيماً جديداً للدولة وأجهزتها ومرافقها، غـــير ذلـك التنظيـم البسيط الذي كان موجوداً ويومها لم يمانع أحـد مـن المسـلمين في الاستفادة من تجـــارب الأمـم والحضـارات الأخـرى، ولم يزعم زاعم أن في القــرآن غـنى عـن إنجـازات البشـر غـير

المسلمين وعلومهم المتعلقة بأمور الدنيـــا والمجتمـــع والمعـاش .. فوجدنا عمر يقرر تكوين جيش نظامي محـــترف متفـــرغ أهلـــه للجندية، وذلك بعد أن استشار المسلمين فقـــال لـــه: «الوليـــد بن هشام بن المغيرة»: «يا أمير المؤمنين: قد جئـــت مـــن الشـــام فرأيت ملوكها قد دونـــوا ديوانـــا وجنـــدوا جنـــودا،» فـــأخذ بقوله (طبقات ابن ســـعد ج٣ قســـم١ ص٢١٦).

كما قال له أبو هريرة: «يـــا أمـــير المؤمنـــين، اني رأيـــت هؤلاء الأعاجم ـــ الفرس ـــ يدونـــون ديوانـــا يعطـــون النـــاس عليه فدون عمر الديوان» (طبقـــات ابـــن ســـعد ج٣ قســـم ١ ص٢١٦).

فعمر بن الخطاب قد أخذ برأى الوليـــد بـــن هشـــام بـــن المغيرة واستمع لمشورة أبي هريرة فاقتبس واســـتفاد مـــن تجـــارب الفـــرس والمجـــوس والـــروم النصـــارى في الاقتصـــاد والإدارة وتنظيم الدولة، ويومها ـــ وأيضاً فيمـــا بعـــد ـــ لم يقـــل أحـــد: ان على المسلمين ألا يمدوا أبصارهم وعقولهم إلى مـــا هـــو أبعـــد من تجربتهم الخاصة وكتابهم الـــذي أوحـــى إلى رســـولهم عليـــه الصلاة والســـلام.

ذلك ان كتـــاب الله وقرآنـــه هـــو بالدرجـــة الأولى وفي الأساس كتاب دين بلغـــت بـــه الإنســـانية رشـــدها في الهـــدى الإلهي، وما في ثناياه من إشارات إلى أمـــور الدنيـــا والمجتمعـــات والمعاش هي قوانين كلية وعامة وهي قد جـــاءت كذلـــك حـــتى لا تضع على العقـــل الإنســـاني قيـــوداً تحـــول بـــين الإنســـان والتجـــديد والتغيـــير والتطويـــر الـــذي تســـتدعيه تطـــورات الحيـــاة والمجتمعـــات.

والله سبحانه وتعالى عندمـا يقـول لنـا: «مـا فرطنـا في الكتاب من شيء» فانما يقصد ــ كمـا يقـول المفكـر المسـلم العظيم عبد الرحمن الكواكبي ــ مـا فرطنـا في الكتـاب مـن شيء من أمور الدين» وليس من أمور الدنيـا.

ومالنا نذهب بعيداً وقد كفانا الإمام محمـد عبـده مئونـة هذا البحث عندما كتب يقـول ان الزعـم بوجـود كـل مـا يحتاج إليه البشر في المعاش والمعاد بالكتب المقدسـة هـو فكـر غريب عن الإسلام، وزعم زعمه رجـال الكهانـة في المسـيحية الأوروبية فهم الذين جعلوا هـذا الزعـم أصـلاً مـن أصـول المسيحية وقالوا: «ان الكتب المقدسة تحتـوي علـى كـل مـا يحتاج البشـر إلى عملـه سـواء كـان متعلقـاً بالاعتقـادات الدينية، والآداب النفسية، والأعمـال البدنيـة، ممـا يـؤدي إلى نيل السـعادة في الملكـوت الأعلـى، أو كـان مـن المعـارف البشرية التي يتأتى للعقل الإنساني أن يتمتـع بهـا».

والإمام محمد عبده يرفض هـذا القـول، ويسـخر مـن قول«تيرتورليان»: «ان أساس كل علم هـو الكتـاب المقـدس وتقاليد الكنيسـة، وان الله لم يقصـر تعليمنـا بـالوحي علـى الهداية إلى الدين فقط، بـل علمنـا بـالوحي كـل مـا أراد أن نعلمه من الكون، والكتاب المقـدس يحتـوي علـى العرفـان، على المقدار الذي قـدر للبشـر أن يتـأتوه .. وأنـه يمكـن أن يؤخذ فن المعادن ــ مثلا ــ بأكمله من الكتـاب المقـدس!».

يرفض الإمام محمد عبـده هـذا الموقـف الـذي يزعـم أصحابه احتواء الكتب الدينية على كل أمـور الحيـاة، دنيويـة وآخروية. ويقرر ان الإسلام يرفض هذا الزعـم ويحـرر عقـول أهله من هذا الجمود، ويحميـهم مـن آثـار العزلـة والتقوقـع

الذي يجرهم إليه هذا الفهم الخاطئ والغريب (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ ج٣ ص٢٦٣).

هكذا كان يفكر ويقرر أسلافنا العظام في عهد الخلافة الراشدة .. هكذا فكر وقرر الأئمة الذين تصدوا منذ القرن الماضي لمهمة تجديد حياة المسلمين وقيادة مجتمعاتهم كي تتجاوز العصور المظلمة وتلحق بركب المدنية والتطور الحديث.

وفي الحقيقة ان هذا الموقف للإمام محمد عبده كان المنهج الذي ازدهرت على أساسه حضارتنا الإسلامية الحديثة وازدهر إنتاجها العلمي والفكري. فقد كان طبيعياً أن يبدأ أسلافنا العظام من حيث انتهى من سبقهم، ولو قالوا أيامها انهم يملكون كل شيء لما توصلوا إلى شيء مما نعتز به ونفخر. لقد بدأ أسلافنا بالتعرف على تراث الحضارات المحيطة، وبدأت الترجمات من اللغة اليونانية على يد خالد بن يزيد (المتوفي عام ٨٠٧م) أي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ثم تزايد النقل وانتظم في أيام العباسيين. ولم يعد عملية فردية ولكن أصبح عملية متخصصة تتبناها الدولة وعلى أساس التفاعل مع هذا التراث الإغريقي ومع التراث الهندي والبابلي تجاوزت نهضتنا الفكرية من نقلت عنهم، وأضافت رصيداً جديداً إلى العقل البشري في كافة مجالات العلم.

ترى أليس مطلوباً باسم المنطق، وباسم تقاليد الأسلاف العظام، ان نفعل الآن نفس الشيء ؟ وهل نكون قد كفرنا إذا قرأنا واستفدنا من اكتشافات ماركس كما استفاد الأقدمون من إنجازات أرسطو ؟ قد يختلف بعضنا مع

أفكار ماركس، وقــد يختلفـون حـول تفسـيرها وتطويرهـا. ولكنهم في الزمن القديم اختلفوا أيضاً حــول أرســطو، وكــان هناك الفارابي وابن سينا وابــن رشــد وابــن خلــدون، وكــان هناك أيضاً أبو الحسن الأشـعري والغـزالي .. كـانوا اتجـاهين، بل اتجاهات. ولكنها كــانت خلافــات في العلــم. ولم ينكــروا إسلام من قال أنه مســلم لأنــه اختلــف في التــأويل أو لأنــه استفاد من تراث الحضارات الســابقة.

***

بعد هذا العرض أود أن أســجل التقــالي الكــامل مــع مضمون ما كتبه الأخ الشيخ المــهندس أحمــد زيــن العــابدين السماك. لقد اتفقنا في المضمون واختلــف معــي فقــط لأنــني قبلت أن يطلق علي لفظ ماركســي. وفي الحقيقــة ليــس مــن عادتي أن أتمسك بألفاظ معينة. فما يهمني هــو الجوهــر، وقــد استخدمت تجاهي كلمة ماركسية لأنهــا أصبحــت ذات معــنى مفهوم في كل مكان في العالم، وأنــا علــى اســتعداد لاســتبعاد الكلمة إذا كانت تؤدي إلى مزيد من اللبــس بــدلاً مــن مزيــد من الوضوح، والمهم أن يكون واضحاً انني أقصــد أنــني مؤمــن بالاشتراكية العلمية، أي الاشتراكية الــتي لم تعــد حلمــاً وإنمــا وصلنا إلى أنها حلقــة ضروريــة ومتقدمــة في تطــور المجتمــع، وهذا قانون موضوعــي كــان لمفكــري الاشــتراكية الأوائــل فضل كشفه أمام البشــرية.

ثم تبقى كلمة حول مقال الأستاذ عبــد الكــريم الخطيــب في جريدة الأخبار فقــد ســجل ســيادته أن الماركســية ديــن والإسلام دين، وبالتالي فهما لا يمكن أن يجتمعــا معــاً إلا في لــب

منافق وطبعاً لا أملك في مسألة اتهام مثلي بالنفاق إلا أن أقول: سامحك الله. ولكن ما هي حكاية ان الماركسية دين ؟ حسب علمي كمسلم فان الإسلام هو آخر رسالات السماء. ثم إذا كنت قد أوضحت انني ألتقي مع الماركسية فيما اعتبره علماً نفعنا، وفيما لا يتعارض مع الإسلام، فبأي حق يرميني آخر بالكفر أو النفاق ؟ أعتقد ان أقصى ما يستطيع هو أن يعلن انني أخطأت الاجتهاد.

دعونا إذن من تكفير بعضنا البعض، ولنبحث فيما هو أهم وأنفع. المسألة في الجوهر والأساس ــ كما قلت في المقال السابق ــ هي انني من الداعين إلى تشديد النضال ضد أعداء أمتنا الاستعماريين والصهاينة. وانني من الداعين إلى تنمية اقتصادية جادة، وإلى توزيع عادل اشتراكي لثمار هذه التنمية بين العاملين الذين أنتجوها. انني من الداعين إلى نهضة الأمة العربية ومشاركتها الإيجابية في بناء حضارة الإنسان. انني من الداعين إلى إقامة السلطة السياسية للعمال والفلاحين والمثقفين التقدميين لقيادة هذا التقدم. وإيماني بمثل الإسلام هو حافز لتشديد النضال من أجل هذه الأهداف. وإذا كنت أرى ان الاشتراكية العلمية تعيننا بسلاح يساعدنا في تبين الطريق، فان من حق الآخرين أن يختلفوا معي. وقد يعارض البعض مبادئ الاشتراكية في العدل الاجتماعي. ولكن الخلاف في هذه الحالة هو بصراحة خلاف طبقي وسياسي. ولا داعي للزج بالإسلام في هذا الخلاف حول تنظيم شئون دنيانا «فلن ازعم انني أكثر إسلاماً منهم حتى وان كنت أعتقد هذا. وكذلك ليس من حقهم أن يزعموا انهم أكثر إسلاماً مني، أو ان من يتفق معي في الفكر قد أصبح من الكفرة أو المنافقين ! * * * *

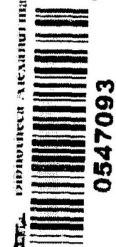
— فهرس —

***

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٨٧٧١
الترقيم الدولي I.S.B.N : 977-5222-43-5

في هذا الكتيب يتصدى خالد محيي الدين بشجاعة لمحاولات أعداء الاشتراكية الدائبة لافتعال تناقض زائف بين نصوص الإسلام وبين الفكر الاشتراكي. ويكشف أساليبهم في تكفير كل من يحاول التوفيق بين روح الإسلام وقوانين الاشتراكية. ويربط بأسلوب موضوعي رزين بين الحلول التي تقدمها الاشتراكية كمذهب اجتماعي لمشاكل الإنسان. وبين ما تدعو إليه أصول الفكر الإسلامي.

ويسحب من تحت أرجل الكهنة وبائعي صكوك الغفران سجادة الدين الذي يتمسحون به. ويفضح حقيقة الخلاف بينهم وبين الاشتراكية. الذي يعتبر بالدرجة الأولى خلافاً سياسياً طبقياً. يزجون فيه بالإسلام عنوة. في محاولة لاستعداء المؤمنين. ضد أفكار العدالة الإنسانية.





دار العالم الثالث

٣٢ ش صبري أبو علم باب اللوق / القاهرة

جمهورية مصر العربية

Email: elguindimohamed@hotmail.com